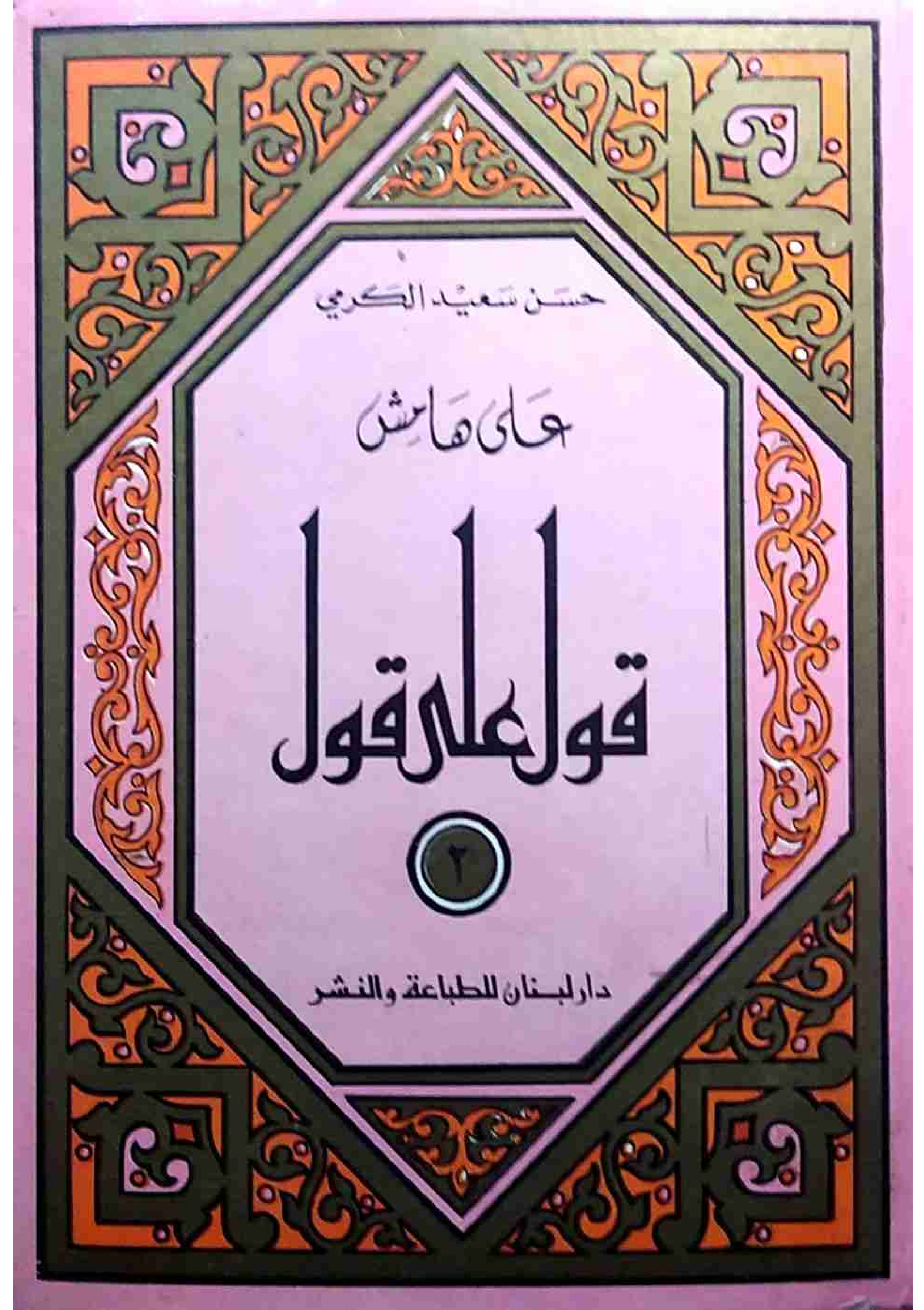

حسن سعيد الكرمي
على هامش
قول على قول
٢
دار لبنان للطباعة والنشر

حسن سعيد الكرمي

على هامش

قول على قول

الجزء الثاني

دار لبنان للطباعة والنشر

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م
بيروت - لبنان



مقدمة

يسرنا أن نقدم إلى القراء العرب هذه السلسلة الأدبية الجديدة «على هامش قول على قول» وهي أيضاً مستقاة من ذخائر الأدب العربي وطرائفه. وهي كسابقتها «قول على قول» تصب في جهودنا الهادفة إلى إغناء مكتبة المطالعة العربية بالكتب المشوقة في المادة والأسلوب والمستقاة من الينابيع التي لا تنفد من تراثنا العربي، والتي تزيد القارىء ثقافة ومعرفة وحبًّا بتراثه الخالد على مرّ العصور.

والله نسأل أن يوفق جهودنا إلى ما فيه الخير.

حسن سعيد الكرمي

الحب العذري

(١)

حبُّ بني عُذْرة ...

قيل إن الحب العذري خاص ببني عذرة من العرب، وقيل إنهم كانوا يحبون ولم يكن في حبهم فسق، وقيل إنهم كانوا يعشقون حتى يقتلهم العشق وهم مقيمون على العفاف ورقة القلوب وتجنب المآثم. وكانت نساؤهم جميلات وكانوا هم أعفاء. وقد مدحهم بذلك شاعران ألمانيان أحدهما غوتي Goethe والثاني هايني Heine في قطعتين قصيرتين من الشعر. وشبهوا الحب العذري بالحب الأفلاطوني وهو حب الجمال والجميلات أو الجميلين مع العفاف وطهارة النفس. وأول من أشار إلى ذلك أفلاطون في كتاب Symposium فقد قال عن سقراط إنه كان يحب معاشرة الشباب الجميلين يتحدث إليهم ويجتمع بهم وهو على أكمل ما يكون من العفاف. وقيل إن عمر بن أبي ربيعة كان يحب الحُسن ويسعى إلى رؤيته أينما كان، وفي ذلك يقول:

إني امرؤ مولَعٌ بالحسن أتْبَعُه
ولا حظَّ لي منه إلا لذةُ النَّظَرِ

ويروى في «كتاب الفرج بعد الشدة» للتنوخي عن حمّاد الرواية أنه قال:

أتيت مكة فجلست في حلقة فيها عمر بن أبي ربيعة المخزومي

فتذاكرنا العذريين من العشاق فقال عمر بن أبي ربيعة: كان لي صديق من بني عذرة يقال له الجَعْد بن مُهجِع، وكان أحد بني سلامان وكان يلقى من الصبابة بالنساء شدة بالغة على أنه لا كان عاهر الخلوة ولا سريع السلوة، وكان يوافي الموسم في كل سنة إذا حان وقته. فغمني ذات سنة إبطاؤه عن حضور الموسم، حتى قدم حجاج بني عذرة فأتيت القوم أنشد صاحبي، وإذا غلام قد تنفس الصعداء ثم قال: تسأل عن أبي المُسهر؟ قلت: نعم، عنه اسأل وإياه أردت. قال الغلام: هيهات هيهات! أصبح أبو المسهر لا هو مأيوس منه فيهمل ولا مرجوّ فيعلل، وهو والله كما يقول الشاعر:

لعمريَ ما حبّي لأسماء تاركي
أعيش ولا أقضي به فأموت

فقلت للغلام: وما الذي به؟ قال: مثل الذي بك من الهيمان في تيهكما في الضلال وجرّكما أذيال العار كأنكما لم تسمعا بجنة ولا نار. فقلت: ومَن أنت منه يا ابن أخي؟ قال: أخوه. قلت: ما يمنعك أن تسلك مسلك أخيك من الأدب وأن تركب منه مركبه، ثم صرفت وجه ناقتي عنه وأنا أقول:

أرائحةٌ حجاج عذرة وجهةً
ولّما يَرُح في القوم جَعْد بن مُهْجِع
خليلان نشكو ما نلاقي من الهوى
متى ما أقل يسمع وإن قال أَسمَع
ألا ليت شعري أي شيء أصابه
بَلَى زفرات هِجن من بين أضلع
فلا يُبعدنْكَ الله خِلًّا فإنني
سألقى كما لاقيتَ في الحب مصرعي

ثم انطلقت حتى وقفتُ موقفي من عرفات، فبينما أنا كذلك إذا بإنسان قد تغيّر لونه وساءت هيأته، فأدنى ناقته من ناقتي ثم خالف بين أعناقهما وعانقني وبكى حتى اشتدّ بكاؤه فقلت: ما وراءك؟ فقال: نَوح العذل وطول المطل، ثم أنشأ يقول:

لئن كانت غُدَيَّةُ ذاتَ لبٍّ
لقد علمتْ بأن الحبَّ داءُ
ولا تنظرْ إلى تغيير جسمي
وأني لا يفارقني البكاء
فإني لو تكلفني كلاماً
لعف الكلم وانكشف الغطاء
وإن معاشري ورجال قومي
حتوفهم الصبابة واللقاء
إذا العذري مات حليف قوم
فذاك العبد تبكيه الرشاء

فقلت: يا أبا المسهر، إنها ساعة يُضرب إليها أكباد الإبل من شرق الأرض وغربها فلو دعوت كنت تتمنى أن تظفر بحاجتك. قال عمر: فتركني وأقبل على الدعاء، فلما نزلت الشمس للغروب وهمّ الناس أن يفيضوا من عرفات سمعته يتكلم بشيء فأصغيت إليه فإذا هو يقول:

يا رب كل غدوة وروحَه
من مُحرم يشكو الضنا ولوحَه
أنت حسيب الخطب يوم الدوحَه

فقلت له: وما يوم الدوحة؟ فقال: والله لأخبرنك ولو لم تسألني. ثم تيمّمنا نحو مزدلفة، وهناك أقبل علي وقال: إني رجل ذو مال من

نَعم وشاء، وإني خشيت عام أول على حالي التلف من قلة الكلأ والماء، وكان الغيث قد نزل على أرض كلب فانتجعت أخوالي فيهم فأكرموني وأنزلوني منزلاً حسناً، ثم إني عزمت على مرافقة إبلي على ماء لهم يقال له الحردان فركبت فرسي ومضيت حتى إذا كنت بين الحي ومرعى الغنم رُفعت لي دوحة عظيمة فنزلت عن فرسي وشددته بغصن من أغصانها وجلست في ظلها، فبينما أنا كذلك إذ سطع غبار من ناحية الحي ثم رُفعت لي شخوص ثلاثة ثم تبينت، فإذا فارس يطرد مِسحلاً وأتاناً فتأملته فإذا عليه درع أصفر وعمامة خز سوداء، وإذا فروع شعره تضرب خصريه. فقلت غلام حديث عهد بعرس أعجلته لذة الصيد فترك ثوبه ولبس ثوب امرأته، فما جاز عني إلا يسيراً حتى طعن المسحل وثنى طعنة للأتان فصرعهما وأقبل راجعاً نحوي وهو يقول:

نطعنهم سُلكى ومخلوجةً   كرّك لا مين على نابل

فقلت له إنك قد تعبت وأتعبت فرسك فلو نزلت. فنزل عن فرسه وشده بغصن من أغصان الدوحة وألقى رمحه، ثم أقبل حتى جلس وجعل يحدثني حديثاً ذكرت فيه قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإنّ حديثاً منك لو تبذلينه
جنى النحل في ألبان عُوذ مطافل

فقمت إلى فرسي فأصلحت من أمره. ثم حسر هو العمامة عن رأسه فإذا غلام كأن وجهه الدينار المنقوش، فقلت سبحانك اللهم ما أعظم قدرتك وأحسن صنعتك. فقال لي: مِمّ ذاك؟ قلت: مِمّا راعني من جمالك وبهرني من نورك. فقال: وما الذي يروعك من حبيس التراب وأكيل الدواب ثم لا يدري بعد ذلك أينعم أم ييأس. قلت: لا يصنع الله بك إلّا خيراً. ثم تحدثنا ساعة ثم قال: ما هذا الذي أرى قد شددت في سرجك؟ فقلت: شراب أهداه لي بعض أهلك فهل لك

فيه من أرب؟ قال: أنت وذاك. فأتيته بـه فشرب منه، ثم جعـل ينكت بالسوط ثناياه في فمـه فكان يتبين لي أثر السـوط فيهن. فقلت: مهلاً، فإني خائف أن تكسرهن. قال: وَلِمَ؟ قلت: لأنهن رقاق عـذاب. فرفـع عقيرته يتغنى وأنشد:

إذا قبّـل الإنسـان آخـر يـشتـهـي
ثـنـايـاه لم يـأثـم وكـان لـه أجـرا
فـإن زاد زاد الله في حـسـنـاتـه
مثـاقيـل يمحـو الله عنـه بهـا الـوزرا

ثم قام إلى فرسه فأصلح من أمره ثم رجع. فـبرقت لي بارقـة من تحت الدرع فإذا الذي رأيته كأنه حق عاج. فقلت: نشدتـك الله امرأة أنت؟ قـالت: نعم والله، إلا أني أكـره العشـير وأحب الغـزل. ثم أجلستهـا وجعلت تشرب معي، ونـظرت إلى عينيهـا كـأنهما عينـا مهـاة مذعورة، فزين لي الشيطان الغـدر وحسّنه في عيني ولكن الله عـز وجل عصمني منه، فجلست حَجرةً منهـا فما لبثت إلا يسيـراً حتى انتبهت هي فزعة وكان قد أخذ منها الشراب، فلاثت عمامتها برأسها وركبت فرسها وقـالت: جزاك الله عن الصحبـة خيراً. قلت: ألا تزودينني منك زاداً فناولتني يدها فقبلتها فشممت منها والله رائحة الشبـاب، وذكرت قـول الشاعر:

كـأنها إذ تقضّى النـوم وانتبـهت   سحـابـة مـالهـا عـين ولا أثـر

وقلت لها: وأين الموعد؟ فقالت: إن لي إخوة شوساً وأباً غيـوراً، والله لأن أسُرّك خير من أن أضرُّك. وانصرفت. وجعلت أتبعها بصري حتى غـابت عني. فهي والله يـا ابن أبي ربيعـة هي التي أحلّتني هـذا المحل وأبلغتني هذا الموضع. فهذا هو يوم الدوحة.

وكـان العرب يـطلقون كلمـة العفاف عـلى الحب العذري أو بمـا

يشبهه، أو على الزهادة في اللذات، ورأيت لنفطويه وهو عبد الله بن ابراهيم بن عرفة قوله:

ليس الظريف بكامل في ظرفه
حتى يكون عن الحرام عفيفا
فإذا تعفف عن محارم ربه
فهناك يُدعى في الأنام ظريفا

وقال:

كم قد ظفِرت بمن أهوى فيمنعُني
منه الحياء وخوف الله والحذر
وكم خلوت بمن أهوى فيُضعفني
منه الفكاهة والتقبيل والنظر
أهوى المِلاحَ وأهوى أن أجالسهم
وليس لي في حرام منهم وطر
كذلك الحب لا إتيان معصية
لا خير في لذة من بعدها سقر

وقال سعيد بن حُميد:

زائر زارنا على غير وعد
مخطَف الكشح مُثقَل الأرداف
غالب الخوفَ حين غالبه الشو
قُ وأخفى الهوى وليس بخافي
غضّ طرفي عنه تُقى الله فآختر
تُ على بذله بقاءَ التصافي
ثم ولّى والخوف قد هزّ عِطفيه
ولم يخلُ من لباس العفاف

ويقول أبو بكر بن داود العباسي:

أُنــزّه في روض المحــاسن مقلتي   وأمنــع نفسي أن تنــالَ محــرَّمــا

ويقول ابن طَباطَبا:

فــطربــت طــربــة فــاسق مــتــهــتّــك
وعَــفَفْــتُ عِفّـــةَ نــاسِــك مُــتَحــرِّج

اللــه يــعــلم كــيــف كــانت عِــفّــتي
مــا بــين خَــلخــال هــنــاك ودُمْــلُج

وكنّى عن العفاف ابن ميّادة بقوله:

ومــا نِــلت منــهــا محــرمــاً غــير أنــني
أُقَبِّــل بسّــامــاً مــن الــثــغــر أفــلجــا

وألــثــم فــاهــا آخِــذاً بــقــرونها
وأتــرك حــاجــات الــنــفــوس تحــرّجــا

وقال سفيان بن زيـاد: قلت لامرأة من عـذرة، ورأيت بها هـوى غالباً حتى خفت عليها الموت. مـا بال العشق يقتلكم معـاشرَ عذرة من بـين أحياء العـرب؟ قالت: فينـا جمـال وتعفف، فـالجمـال يحملنـا عـلى العفاف والعفاف يـورثنا رقـة القلب، والعشق يُفني آجالنـا، وإنا نـرى محاجر لا ترونها.

وقال الفَنْجَدِيهي: عُذرة قبيلة من العرب يستلذون مـرارة العشق كـما يستلذ البعضُ الضرب. جُبلت المحبـة في طينتهم وصـار الهـوى وصفهم استأسرهم العشق أسراً. فمنهم من يموت من أُوام غرامه ومنهم من يموت بهُيام سقامه.

* * *

الحب العذري

(٢)

حكاية شِسْبي Thisbe
وپيرامس Pyramus

حكاية شسبي وپيرامس حكايـة بابليـة قديمـة تصـور لنـا الحب العذري. وپيرامس فتى بابلي كان يعشق فتاة جميلة عـذراء تسكن قريبـاً من مسكنه في حي واحد. وعلق الفتى هذه الفتاة وعلقتـه هي. ورفض أبـوه وأبوهـا أن يزوجـاهما، فكـانا لا يجتمعـان إلاّ سِراً وكـانـا إذا أرادا الحـديث تحدثـا من خلال كـوّة في جدار يفصـل بـين بيتيهما. وعـاهـدا نفسيهمـا على الحب الطاهر الـبريء، واتفقا عـلى أن يجتمعـا سرًّا عنـد ضريح نينس Ninus تحت شجرة توت من التوت الأبيض خـارج أسوار بابل. وفي يوم من الأيام جاءت شِسْبي إلى المكان قبل پيرامس، فقعدت تنتظر وإذا بلبوة تفـاجئها فهـربت منها ولجـأت إلى كهف هناك آختبـأت فيه، وألقت وهي هاربة حجاباً لها كانت تغطي بها وجهها، فرأته اللبوة وأخذته في فمها ولاكتـه ولـطخته بشيء من الـدم ثم لفظتـه. وما لبث پـيرامس أن جاء للموعـد فلم يجد شِسْبـي ووجـد حجـابهـا ملقى عـلى الأرض ملطخاً بالدم، فظن أن أحـد السباع قـد افترس حبيبتـه، فانثنى على سيفه حتى خالطه. ثم إن شِسْبي بعد أن عاد إليها روعها وآطمـأنت خـرجت من الكهف وأتت إلى المكان المـوعود، فـرأت حبيبهـا پـيرامس

يتشحط بدمه في آخر رمق من حياته، فأنثنت هي أيضاً على السيف الذي مات به حبيبها وخرت ميتة إلى جانبه. أما شجرة التوت فقد شربت من دم الحبيبين وصار تثمر توتاً أحمر بعد ما كان أبيض.

ورأيت في كتاب المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ حكاية مشابهة أنقلها عنه. روي عن الطفيل بن عامر العَمْري أنه قال: خرجت ذات يوم أريد الغارة وكنت رجلاً أحب الوحدة. فبينا أنا أسير إذ ضللت الطريق الذي أردته فسرت أياماً لا أدري أين أتوجه حتى نفد زادي فجعلت آكل الحشيش وورق الشجر والعشب حتى أشرفت على الهلاك ويئست من الحياة. فبينا أنا أسير إذ أبصرت قطيعاً من الغنم في ناحية من الطريق فملت إليها وإذا بشاب حسن الوجه فصيح اللسان، فقال لي: يا ابن العم، أين تريد؟ قلت: أردت حاجة لي في بعد المدن وما أظن إلا أنني قد ضللت الطريق. فقال الفتى: أجل إن بينك وبين الطريق مسيرة أيام، فأنزل حتى تستريح وتطمئن وتريح فرسك. فنزلت ورمى هو لفرسي حشيشاً وجاء إلي بثريد كثير ولبن ثم قام إلى كبش فذبحه وأوقد ناراً وجعل يكبب إلي ويطعمني حتى اكتفيت. فلما أجن الليل قام وفرش لي. فقمت ونمت. فبينا أنا في فراشي إذ أقبلت فتاة لم تر عيناي مثلها قط حسناً وجمالاً، وكانت النار لا تزال مشتعلة ونورها يضيء ما حوله. فقعدت الفتاة إلى جانب الفتى، وجعل كل واحد يشكو إلى صاحبه ما يلقى من الوجد به، فامتنع علي النوم لحسن حديثهما، ثم نمت. ولمّا كان في وقت السحر انتبهت فرأيتها قد قامت إلى منزلها. فلما أصبحنا دنوت منه فقلت له: ممن الرجل؟ قال: أنا فلان بن فلان، وأنتسب لي فعرفته، وقلت له: ويحك أن أباك لسيد قومه فما حملك على وضعك نفسك في هذا المكان؟ فقال: أنا كنت عاشقاً لابنة عمي هذه التي جاءتني الليلة، وكانت هي أيضاً تحبني فشاع خبرنا في الناس، فأتيت عمي وسألته أن يزوجنيها فقال: يا بني

إنك ما طلبت شططاً، ولكن الناس قد تحدثوا بشيء وعمك يكره المقالة القبيحة. ثم إن عمي زوجها رجلاً من ثقيف فحملها زوجها إلى هنا، إلى خيام كثيرة بالقرب منا، فضاقت علي الدنيا برحبها وخرجت في طلبها حتى لقيتها ففرحت بي فرحاً عظيماً. ثم جئت زوجها، وكان لا يعرف من أمري شيئاً، فقلت له إني رجل من الأزد وقد أصبت دماً. وأنا خائف وقد قصدتك لما أعرف من رغبتك في آصطناع المعروف، ولي بصر بالغنم، فإن رأيت أن تعطيني شيئاً من غنمك وأكون في جوارك فآفعل. فأعطاني مئة شاة، وقال لي: لا تبعد بها عن الحي. ثم إنه لما رأى حسن حال الغنم أعطاني غنماً أخرى أرعاها. وأقمت عنده أياماً فبينا أنا نائم إذ أنبهني وقال: يا أخا بني عامر، إن زوجتي قد أبطأت في العودة ولم تكن هذه عادتها، وما أظن ذلك إلّا لأمر وأخذ يقول:

ما بال مية لا تأتي كعادتها
هل هاجها طرب أو صدها شغل
لكن قلبيَ لا يعنيه غيركم
حتى الممات ولا لي غيركم أمل
لو تعلمين الذي بي من فراقكم
لما اعتذرت ولا طابت لك العلل
نفسي فداؤك قد أحللتِ بي حرقاً
تكاد من حرها الأحشاء تنفصل
لو كان عاديةٌ منه على جبل
لزلّ وآنهد من أركانه الجبل

ثم ذهب. ولم أنم بعد ذهابه، وفي الصباح أقبل علي وفي يده شيء وجعل يبكي عليه. فقلت له: ما هذا؟ قال: هذه زوجتي آفترسها

السبع، فأكل بعضها وترك البعض الآخر. ثم غاب عني مدة وعاد على عاتقه ليث كأنه حمار، فقلت له: ما هذا؟ قال: هذا الذي آفترس زوجتي. ثم قال لي: يا أخا بني عامر إذا مت فآدرجني معها في هذا الثوب وآكتب على قبرنا:

كنّا على ظهرها والعيش في مهلٍ
والدهر يجمعنا والدار والوطن
فخاننا الدهر في تفريق ألفتنا
واليوم يجمعنا في بطنها الكفن

ثم قام إلى شجرة فخنق نفسه. وقمت أنا فأدرجتهما في ذلك الثوب ووضعتهما في القبر وبنيت عليه وكتبت البيتين عليه.

وكان حزن الفتى على تلك المرأة أشد من حزن زوجها ولكنه كان يكتمه. وكان هو أجدر بالموت.

شيء من العجائب والغرائب

كان عند العرب في القديم اعتقادات غريبة وأفكار عجيبة عن المخلوقات جميعها كالحيوانات والطير والحشرات والزواحف والأسماك وغيرها. وسنذكر هنا شيئاً من ذلك على سبيل التندّر والتعجب. وقد رأيت مثلاً عن الأسد أنه أنواع منها ما وجهه وجه إنسان وشكل جسده كالبقر وله قرون سود كل قرن بطول شبر، ومنها ما هو أحمر كالعنّاب وغير ذلك وتلده أمه قطعة لحم إلى ثلاثة أيام ثم يأتي أبوه فينفخ فيه فتنفرج أعضاؤه وتتميز وتتشكل صورته. ويقال إن من جبن الأسد أنه يخاف من صوت الديك ومن صوت السنور ومن صوت الطست إذا قرع قرعاً شديداً. وإذا دخلت وادياً للسباع وأردت الأمان فقل عند دخولك الوادي: أعوذ بدانيال والجب من شر الأسد. وسبب ذلك أن بختنصّر ملك الفرس رأى في نومه أن هلاكه يكون على يدي مولود، فجعل يأمر بقتل الأطفال فخافت أم دانيال على طفلها فألقته في بئر فأرسل الله أسداً يحرسه. وقيل أن بختنصّر توهم أن الطفل دانيال هو المولود الذي يخاف منه، فضرّى له أسدين وجعلهما في الجب ثم ألقى دانيال عليهما فلم يؤذياه وصارا يدوران حوله ويلحسانه وأقام على هذه الحالة مدة ثم اشتهى الطعام والشراب فأُوحي إلى أخيه أرمياء في الشام أن يذهب إلى أخيه دانيال في الجب الفلاني في المكان الفلاني، فسار

أرميـاء إليه إلى أن وقف عـلى رأس الجب فنادى دانيـال فسمعه وعـرفـه وقال له: من أرسلك إلي؟ قال: أوحي إلي أنك في الجب وفي حاجة إلى طعام وشراب فأتيتك بهما. ثم أخرجه أرمياء من الجب سالماً لم يؤذه أسد من الأسدين.

* * *

من حكايات سفينة نوح

وقيل إنه لما حمل نوح عليه السلام في سفينته من كل زوجين اثنين قال له أصحابه: كيف نطمئن ومعنا الأسد؟ فآبتلي الأسد بـالحمى وهي أول حمى نـزلت في الأرض. ثم شكـا أصحـاب نـوح إليـه العـذرة أو الغائط فسلط عليها الفأر ولم يكن الفأر موجوداً في السفينـة ولكنه صـار في السفينـة من عطسـة الخنزيـر فإن الخنـزير لمّا عطس خـرج الفأر من أنفه. ثم تكاثـر الفأر وأضرّ بمن كـان في السفينة فعـطس الأسد فخـرج من أنفه الهر فكان به هلاك الفأر؟!

* * *

من خواص الأسد

ومن خـواص الأسد أن صـوتـه يقتـل التـماسيح ومَن دهن يـده بشحم الأسد لم يقربه سبع من السباع، ومرارة الـذكر منـه تحل المعقود، ولحمه ينفع من الفالج. وإذا وضعت قطعة من جلده في صندوق لم يقرب ذلك الصندوق سـوس ولا أرضة، وإذا وضـع جلد منه عـلى جلد غيره من السباع تساقط شعره، وهو من الحيوان الذي يعيش ألف سنة.

* * *

أقوال عن الأفاعي

وقيل عن الأفعى إنها تندفن في التراب أربعة أشهر ثم تخرج وقـد أظلمت عيناها فتمر بشجر الرازيانج وهو الشِّمِر الأخضر فتحك عينيهـا

بـه فيرجـع إليها بصرهـا. وقال الـزمخشري إذا عميت الأفعى بعد ألف سنة فإنها تأتي البساتين وتلقي نفسها على شجرة الرازيانج فتحكّ عينيها بها فتبصر، وإذا قطع ذنبها نبت لها ذنب غيره وعاد كـما كان، وإذا قلع نابها عاد بعد ثلاثة أيام.

وحكى عمر بن يحيى العلوي قال: كنـا في طريق مكـة فأصـاب أحـدنا استسقـاء وآتفق أن العرب البـداة سرقوا منـا قطار جمـال وكـان المصاب بالاستقساء على أحد هذه الجمال، ثم جمعتنا المقادير به بعد أيام فوجدناه قد برىء من دائه فسألناه فقال: إن العرب لما أخذوني جعلوني في مكـان في آخر بيـوتهم فكنت في حالـة أتمنّى فيها المـوت، وبينـما أنـا كذلك إذ أتوا يوماً بأفاعي آصطادوها وقطعوا رؤوسها وأذنـابها وشـووها بعد ذلك فقلت في نفسي: هؤلاء آعتادوها فـلا تضرهم فلعلي إن أكلت منها مت وآسترحت، فآستطعمتهم فـأطعموني واحـدة. فلما استقرت في بـطني أخذني النـوم فنمت نومـاً ثقيلاً ثم استيقـظت وقد عـرقت عـرقـاً شديداً واندفعت طبيعتي مئة مرة ووجدت بطني قد ضمر وقد انقطع الألم فـطلبت منهم مـأكـولاً فـأكلت ثم أقمت عندهم أيـامـاً ثم رجعت إلى الكوفة وقـد برئت من الاستقسـاء.

* * *

البقرة والثور والحوت...

والبقـر حيوانـات أهلية، والأنثى بقـرة والذكـر ثـور. وذكـر ابن الفضـل في كتابـه أنـه لمّا خلق الله تعـالى الأرض مـاجت واضـطربت كالسفينة فخلق الله ملكاً في غاية العظم والقـوة وأمره أن يـدخل تحتهـا ويجعلهـا على منكبيـه فـأخـرج الملك يـداً من المشرق ويـداً من المغـرب وقبض عـلى أطراف الأرض وأمسكهـا ثم إنه لمـا لم يكن لقدميـه قـرار خلق الله صخرة من ياقوتة حمـراء في وسطهـا سبعة آلاف ثقب فخـرج

من كل ثقب بحر لا يعلم عظمه إلا الله، ثم أمر الصخرة أن تدخل تحت قدمي الملك، ولمّا لم يكن للصخرة قرار خلق الله لها ثوراً عظيماً يقال له كوثاء له أربعة آلاف عين ومثلها أنوف وأفواه وألسنة وقوائم وكان بين كل قائمتين منها مسيرة خمسمئة عام وأمر الله هذا الثور فدخل تحت الصخرة وحملها على ظهره وقرونه، ولمّا لم يكن للثور قرار خلق الله له حوتاً يقال له بهموت ثم أمره الله أن يدخل تحت الثور ثم جعل الحوت على ماء ثم جعل الماء على الهواء ثم جعل الهواء على ماء أيضاً ثم جعل الماء على الثرى والثرى على الظلمة، ثم انقطع علم الخلائق..

* * *

مكلِّم الذئب..

رأيت في حياة الحيوان الكبرى عن ابن عبد البر وغيره أن الذي كلّم الذئب من الصحابة ثلاثة: رافع بن عميرة وسلمة بن الأكوع وأُهبان بن أوس الأسلمي، ولذلك تقول العرب هو كذئب أُهبان يتعجبون منه، وذلك أن أُهبان بن أوس المذكور كان في غنم له فشدّ الذئب على شاة منها فصاح به أُهبان فأقعى الذئب وقال: أتنزع مني رزقاً رزقنيه الله؟ فقال له أُهبان: ما سمعت ولا رأيت أعجب من هذا، ذئب يتكلم! ولهذا يقال لأُهبان مكلم الذئب ويقال لأولاده أولاد مكلمي الذئب، ومحمد بن الأشعث الخزاعي من أولاده وكانوا يفخرون بذلك. وجاء في الأغاني عن دعبل الخزاعي أن قوماً من خزاعة يقال لهم بنو مكلّم الذئب فخروا على دعبل فقال لهم:

تِهتم علينا بأن الذئب كلمكم
فقد لعمري أبوكم كلّم الذيبا
فكيف لو كلم الليث الهصور إذاً
أفنيتم الناس مأكولاً ومشروبا

هـذا السنـيـدي لا أصـل ولا طـرف
يـكلم الـفيـل تـصعـيـداً وتـصـويـبـا

ومع ذلك فالسنيدي لا يفتخر بأنه يكلم الفيل. والفيل أعظم من الذئب بكثير.

* * *

دابة الأرض: الأرضة

يقال إن دابة الأرض المذكورة في سورة سبأ هي الأَرَضة. وذكروا عن سليمان النبي أنه أمر الجن ببناء صرح فبنوه، فلما أوشك بناؤه على التمام، دخله سليمان عليه السلام وأراد أن يصفو له يوم واحد يقضيه في الصرح وحيداً. فدخل عليه شاب، فقال له سليمان: كيف دخلت بغير استئذان؟ قال: دخلت بإذن الله تعالى، وإذا هو عزرائيل ملك الموت جاء ليقبض روح سليمان. فقال سليمان: سبحان الله، في هذا اليوم الذي طلبت فيه الصفا! وكان قد بقي من بناء الصرح بقية، فقال له سليمان: يا أخي يا عزرائيل أمهلني حتى يتم البناء. فقال: ليس في أمر الله مهلة، وقبض روحه.

وكان لما قُبضت روحه متوكئاً على عصا، وآستمر ذلك مدة، والجن تتوهم أن سليمان لا يزال يشرف عليهم فكانوا يعملون كل يوم بقدر عشرة أيام، حتى أراد الله ما أراد فسلّط الأرضة على العصا فنخرتها وأكلتها فخرّ سليمان ميتاً وتفرقت الجن.

وقيل خلافاً لذلك إن واحداً من الجن مرّ على سليمان وسلّم عليه فلم يردّ السلام فدنا منه فلم يجد له نفساً فحرّكه فسقطت العصا وسقط سليمان وإذا هو ميت وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، وكانت العصا من الخرنوب.

وقيل إن الجن شكرت الأرضة حتى قيل إنهم كانوا يأتونها بالماء حيث كانت.

❊ ❊ ❊

العقرب والضفدع

قال ذو النون المصري: بينما أنا في بعض سياحتي إذ مررت بشاطىء البحر فرأيت عقرباً أسود قد أقبل إلى أن جاء إلى شاطىء البحر فظننت أنه يريد أن يشرب فقمت لأنظر فإذا بضفدع قد خرج من الماء وأتى العقرب فحمله على ظهره وذهب به إلى ذلك الجانب. فآتزرت بمئزري ويممت وراءه حتى إذا صعد إلى ذلك الجانب صعدت أنا وسرت وراءه فما زال يمشي حتى جاء إلى شجرة فوجدت تحتها غلاماً نائماً من شدة السكر وقد أقبل عليه ثعبان عظيم. فلصقت العقرب برأس الثعبان ولسعته فقتلته ثم رجعت إلى ظهر الضفدع فركبته وعبر بها الماء وسار بها إلى المكان الذي جاءت منه، فتعجبت من ذلك وأنشدت:

يا راقداً والجليل يحفظه ... من كل سوء يكون في الظلم
كيف تنام العيون عن ملك ... يأتيك منه فوائد النعم

ثم أيقظت الغلام وأخبرته بما جرى. فلما سمع ذلك قال: أشهدك على أني قد تبت عن هذه الخصلة، ولبس الغلام مسحاً وساح كما يسيح الزهاد والناسكون.

ومما يشبه ذلك عن العقرب والثعبان قول عُمارة اليمني:

ولا تحتقر كيد الضعيف فربما ... تموت الأفاعي من سموم العقارب

❊ ❊ ❊

من سكان الفضاء..

قال المسعودي: وجدت في أخبار هارون الرشيد أنه خرج ذات يوم إلى الصيد ببلاد الموصل وعلى يده باز أبيض. فآضطرب البازي على

يده فأرسله فآنطلق في الهواء ولم يزل يحلق حتى غاب في الجو ثم ظهر، بعد الأياس من عودته، وقد علق شيئاً يشبه الحية أو السمكة وله ريش كأجنحة السمك وهوى به. فأمر الرشيد بهذا الشيء أن يؤخذ ويوضع في طست، ثم سأل العلماء: هل تعلمون للهواء ساكناً؟ فقال أحدهم: روينا عن عبد الله بن عباس أن الهواء معمور بأمم مختلفة الخلق، وفيه سكان أقربها منا دواب تبيض في الهواء، وتفرخ فيه، يرفعها الهواء الغليظ ويربيها حتى تنشأ في هيئة الحيات أو السمك لها أجنحة ليست بذات ريش. فأخرج الرشيد الطست إليهم وأراهم تلك الدابة.

ويقول المسعودي في تعليقه: إن الناس يستدلون على وجود المخلوقات في الهواء والنار لأنهم يرون المخلوقات في الأرض والماء وهما ثقيلان، والهواء والنار خفيفان.

العنقاء

اختلفوا في العنقاء، فمنهم مَن قال إنها طائر عظيم الخلقة له وجه إنسان وفيه من كل حيوان لون. وقال بعضهم إنها طائر غريب الشكل يبيض بيضاً كالجبال ويبعد في طيرانه. وسمي هذا الطائر بالعنقاء لأنه كان في عنقه طوق أبيض. وقال القزويني إنها تخطف الفيلة كما تخطف الحدأةُ الفأر، وكانت في قديم الزمان بين الناس إلى أن خطفت عروساً بزينتها وحُلِيها فذهب أهلها إلى نبي ذلك الزمان فشكوها إليه فدعا عليها فذهب الله بها إلى بعض الجزائر خلف خط الاستواء وهي جزيرة لا يصل إليها أحد وجعل لها ما تقتات به من السباع كالفيل والكركدن وغير ذلك. وقال أصحاب التواريخ إن العنقاء طائر يعمّر طويلاً حتى قيل إنه يعيش ألفي سنة. وحكى الزمخشري في ربيع الأبرار إن هذا الطائر كان في زمن موسى عليه السلام وكان له وجه كوجه الإنسان وأربعة أجنحة من كل جانب وكان له أنثى من جنسه وكان رزقه الوحوش والطير فتناسلا وكثر نسلهما ثم انتقلت العنقاء بعد موسى إلى نجد والعراق فلم تزل تأكل الوحوش وتخطف الصبيان إلى أن ظهر خالد بن سنان العبسي فشكوها إليه فدعا عليها فانقطعت.

والعنقاء عند العرب طائر خرافي، ويقال لها عنقاء مُغرِب، واختلفوا في سبب تسميتها بذلك، وجاء ذكرها كثيراً في الشعر العربي،

وقال ابن الكلبي : كان لأهل الرسّ كاهن يقال له حنظلة بن صفوان وكان بأرضهم جبل يقال له دَمْخ مصعده في السماء ميل. وكانت تنتابه طائرة أعظم ما يكون من الطير، لها عنق طويل، وكانت تقع منتصبة على ذلك الجبل ومنه كانت تنقض على الطير فتأكله. فجاعت ذات يوم وأعوزت الطير فآنقضت على صبي وذهبت به فسميت عنقاء مُغرِب لأنها تغرب كل ما تأخذه. ثم إنها انقضّت على بنت فضمتها إلى جناحين لها صغيرين وطارت بها. فشكوا ذلك إلى كاهنهم فدعا عليها وقال: اللهم خذها وآقطع نسلها وسلِّط عليها آفة، فأصابتها صاعقة فآحترقت. وقال القزويني إنه لما دعا عليها حنظلة ذهب الله بها إلى بعض جزائر البحر المحيط تحت خط الاستواء.

وقد ذكرها الشعراء، ومنهم عنترة بن الأخرس الطائي حيث يقول في رثاء خالد بن مَزْيَد:

لقد حلَّقت بالجود فتخاء كاسر ... كعنقاء دمخٍ حلقت بالحَزَوّر

والحزوّر هو الغلام، ويظهر أنها اختطفت غلاماً غير الصبي الصغير. ومثله في الرثاء قول العُتْبي في السَّري بن عبد الله بن الحارث:

إذا مات ابن عبد الله خلّى مكانه
فقد حلّقت بالجود عنقاء مُغرِب

ويقول الحادرة وهو قُطبة بن أوس:

كأنّ عُقيلًا في الضُّحى حلّقت به ... وطارت به في الجو عنقاء مُغرِب

وقال النميري للحجاج:

فلو كانت العنقاء يوماً تطير بي
لَخِلْتُكَ، إلّا أن تَصُد، تراني

وكانوا ينكرون وجود العنقاء، ومن ذلك قول القاضي أبي سعيد ابن عبد الله السيرافي:

الجود والغول والعنقاء ثالثة
أسماء أشياء لم تخلق ولم تكن

ومنه قول صفي الدين الحلي:

أيقنت أن المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخلّ الوفي

ومنه قول أبي نواس يهجو إسماعيل بن نَيْبخت:

وما خبزه إلّا كعنقاء مغرب
تُصَوّر في بُسط الملوك وفي المُثل
يحدث عنها الناس من غير رؤية
تُرى صورة ما إن تُمِرّ وما تُحْلي

ولمحيي الدين بن عربي كتاب في التصوف اسمه عنقاء مُغرِب.

من أخبار الجواري

١ - الجواري والعشق

كان أبو الحسين بن ميمون الأفطس وزيراً للخليفة المتقي ثم تولى الوزارة للمتقي بعده أبو عبد الله اليزيدي للمرة الثانيـة في بغداد فقبض على ابن ميمون الأفطس وساقه إلى البصرة. وآتفق أن جاء اليزيدي من بغـداد إلى البصرة منهزمـاً والتقى بابن ميمـون الأفـطس فـوجـده أحـلى الناس حديثاً وأحسنهم ثوباً وأكملهم عقلاً ولم يكن أحد أشد تغـزلاً ولا تهالكاً على العشق منه. وكان لا يفارق اليـزيدي ولا اليـزيدي يفـارقه. وفي يوم من الأيام حدث ابن ميمون الأفطس حكايـة عشقه لجـارية من الجواري فقال:

عشقتُ مغنية من القيان عشقاً مبرّحاً شديداً فراسلتُ مـولاتها أن تبيعهـا لي فطلبت المـولاة ثمنها ثـلاثة آلاف دينـار وهـو مبلغ لم يكن في آستطاعتي تداركـه، ثم داخلتني خشية من أني إن آشـتريت الجاريـة أن أملّها ويذهب عني عشقي لهـا. فصرفت الفكر عن ذلـك أيامـاً. وآتفق أن الخليفة المقتدر بالله كان قد أمر بأن يُشترى لـه مغنيات ولم أكن أعلم بذلك، فآشتُريت تلك المغنية التي كنت أعشقها ـ وكـانت حسنة الـوجه جيدة الغناء ـ من جملـة المغنيـات المشتَريـات، وحملت المغنية إلى المقتـدر

بالله مع تلك الجواري. ثم بدا لي أن أعاود عشقي لتلك الجارية فبعثت إلى مولاتها أطلبها منها فقالت إنها قد اشتريت وحملت إلى المقتدر بالله، فلما ورد عليّ الخبر قامت عليّ القيامة ودخل على قلبي من الأحزان أمر ما دخل مثله عليّ قط من نكبة فضلاً عن عشق، وزاد الحال بي حتى انتهى بي إلى حد الوسواس وانقطعت عن النظر في أمر بيتي وشغلني البكاء عن كل شيء ولم يكن لي سبيل إلى السلوى أو العزاء.

وكان المتقي لا يزال حدثاً حينما كنت في خدمة أمه كاتباً لها، فأخذت من عِظم ما حل بي أتأخر أياماً عن خدمة أم المتقي وأتخلف عن الحضور إلى عملي عندها، وصرت في تلك الأيام متوفراً على الطواف في البرّية لا آكل ولا أشرب إلاّ قليلاً ولا أتشاغل إلا بالهيمان. ثم إن أم المتقي افتقدتني وأخذت تسأل عني، وأنكر المتقي وأمه أمري، فاستدعاني المتقي يوماً وسألني عن تأخري فوجدني لا أعي شيئاً ولا أفهم ما يقال لي، وسألني عن سبب الحال الذي كنت فيه، فبكيت أمرّ بكاء بين يديه، وصدقته الخبر، وسألته أن يسأل أباه أن يبيعني الجارية أو أن يهبها لي فقال إنه لا يجسر على ذلك. فزاد الأمر علي وفدحني.

وبلغ خبري أم المتقي وعلمت بحالي فرقّت لي وحملت نفسها على أن خاطبت أم المقتدر في أمري، فقالت لها أم المقتدر: ما العجب من هذا الرجل أن يكون العشق قد أعماه إنما العجب منك كيف وقع ذلك أنه يجوز أن نقول للخليفة: إنزل عن جارية لك لرجل يعشقها.

وأرسلت إلي أم المتقي تخبرني بما قالت أم المقتدر. فوقع الخبر علي وقوع الصاعقة، وأخذت أتوسل بمن لهم صلة بالخليفة كالوزير ونصر القَشوري ورؤساء البلد وحاشية الخليفة وكنت أقصد أحدهم بعد الآخر وأبكي بين أيديهم وأسألهم أن يسألوا الخليفة أن ينزل لي عن الجارية إما ببيع أو هبة، فكان منهم من ينكر ذلك علي، ومنهم من

يوبخني ومنهم من يرثي لحالي، ومنهم من كان يقول: إنْ عَلِم الخليفةُ هذا منك وأنك تتعرض لجواريه كان في ذلك تلف نفسك وهلاكها. ومنهم من كان يضحك مني. ومع ذلك فقد كنت ألازم أبواب بيوتهم أو ألازمهم، فآنقطعت عن خدمة مولاتي أم المتقي وأهملت أمر بيتي وضيعتي.

ولمّا طال هذا الحال على المتقي وأمه وضايقهما إخلالي بالنظر في أمورهما فطلبا كاتباً غيري يقوم بالعمل بدلاً مني. وبلغني الخبر، وقد كنت أيست من الحصول على الجارية، وخفت أن يكون الفقر بعد عزلي من عملي، فأقبلت على نفسي أعظها وأسليها إلى أن طاوعتني على الصبر. فبكرت إلى دار المتقي وبدأت عملي وباشرت الأمور هناك، ورأى المتقي وأمه خلاف ما كان قد أصابني من تأخير وآنقطاع فسُرّا بي وبنشاطي وقالا: أنت أحب الناس إلينا من غيرك. فضمنت لهما الملازمة للعمل والمواظبة على تمشية الأمور. وأقمت على ذلك مدة. واشتقت إلى الشرب وكنت قد هجرته منذ فقدت الجارية، وقلت للغلام: امض وأصلح لنا مجلساً للشرب وآدع أصحابنا - أعني أصدقاء لي كانوا يعاشرونني - ولا تدعُ أحداً للغناء. فلما قضيت شغلي عند أم المتقي عدت إلى داري واجتمع أصدقائي وجلسنا وأخذنا في الحديث، فقال بعضهم: لو دعوت من يغنينا، فقلت: أخاف أن أتذكر بالغناء أمري مع الجارية، ففهموني وكفوا عن طلب الغناء، ثم انصرفوا.

وجلست أنا وحدي إلى أن مضت قطعة من الليل، وإذا بالباب يدق دقاً عنيفاً، فقال خادمي: من هذا؟ فقيل له: خدم من أمير المؤمنين، فقامت قيامتي وقلت في نفسي: إن أمير المؤمنين قد علم بقصتي وقال إن مثل هذا الرجل لا يصلح أن يكون كاتباً لامرأة مثل أم المتقي ولا مؤدباً أو مدبراً لغلام حدث مثل المتقي، وها هوذا قد أنفذ من يقبض علي ويريد نكبتي. فقمت ومشيت في

صحن الدار أريد أن أخرج من باب الدار الآخر هرباً، إلّا أن خدم أمير المؤمنين بدروني ودخلوا الدار ومعهم بغلة وشموع وبغال أخرى وعلى البغلة جاريتان. فلما نزلت الجاريتان عن البغلة عرفت منهما جاريتي المغنية.

وقال رئيس الخدم: مولانا يقرئك السلام ويقول إنه عرف خبرك مع هذه الجارية فحنّ عليك ورحمك وقد وهبها لك مع جميع أموالها وجميع هذه الأثقال من صوف وثياب وآلات وقماش وعدة جوار!

ثم انصرف رئيس الخدم بعد أن أنزلوا الأثقال والأموال ثم مضوا ببغالهم.

وأخذت أنا بيد جاريتي وأدخلتها المجلس فلما رأت آثار الشراب قالت: لقد سلوتَ عني. فقلت لها والله ما شربت نبيذاً منذ فارقتها إلّا في هذا اليوم ولم أسمع غناءً. وحدثتها حديثي بطوله. وسألتها كيف جرى حتى سمح الخليفة بإرسالك إلي. فقالت: اعلم أن الخليفة لم يرني منذ اليوم الذي عرضت عليه حين أمر بشرائي إلا الليلة. ولكن السيدة زوجة الخليفة استدعتني منذ مدة وسألتني عن خبري معك وحدّثتني عما دار بينك وبين أم المتقي. فصدقتها الخبر وبكيت عندها. فقالت: كأنك تحبينه؟ فسكت. ولـمّا كانت هذه الليلة قعد الخليفة يسمر مع السيدة وحولها الجواري، وغنيت للخليفة وسُرّ من الغناء، ثم قال: إن كنت تحسنين الصوت الفلاني فغنّيه، وكان هذا الصوت هو الذي أغنيه لك، فغنيته، فتمثلت لي صورتك فبكيت. فرأى الخليفة ذلك مني فقال: ما هذا؟ فتحيرت وجزعت فنظرت إلى السيدة فضحكت وضحك الجواري معها لأنهن كن يعرفن قصتي فقال المقتدر: ما القصة؟ فذكرت السيدة بعد لأي قصة الجارية مع ابن ميمون الأفطس. فسأل الخليفة هل كان بكاؤها من حبها لابن ميمون،

فصدقته الخبر وقالت: نعم. فقال لخدمه: خذوها وجميع ما في حجرتها إلى ابن ميمون وآقرأوه مني السلام وقولوا له إني وهبتها له.

٢ ـ التنافس على شراء الجواري

في حديث عن نخّاسين كانا في بلخ أن جعفر بن يحيى البرمكي أرسل إليهما يطلب جارية قوالة ذات أدب وظرف بصفات ذكرها لهما. فأخذ النخاسان يتذاكران في الجارية المطلوبة وكيف الحصول عليها بتلك الصفات بين الجواري اللواتي كانا يعرفانهن. وكان إلى جانبهما شيخ من أهل الكوفة يسمع حديثهما فأقبل عليهما وقال: عندي بغية الوزير.

ثم نهض ونهضا معه ليريا الجارية، فلما وصلا دار الشيخ وجداها داراً خربة خالية من مظاهر الجدة ولم يريا من الأثاث إلّا مسحاً خلقاً وثلاث قصبات عليها سراج، مما دل على سوء حال الرجل، فآرتابا في قوله. ثم صاح الشيخ بالجارية فخرجت وإذا بها كأنها فلقة قمر تتثنّى في مشيتها. فطلب إليها النخاسان أن تقرأ شيئاً من القرآن، فقرأت آيات من أحسن قراءة، وأتبعت ذلك بقصيدة جيدة طربا لها، ثم سألاها إذا كانت صَناعاً تحسن الضرب على العود فقالت نعم إنها تعلمت الضرب على العود وهي صغيرة. فذهب أحد النخاسين إلى جعفر البرمكي وأخبره بما شاهد، فلم يتمالك جعفر حين سمع ما قيل عن الجارية أن نهض مع النخاس إلى منزل الشيخ فدخل عليه وسأله أن يخرج الجارية فأخرجها، ولمّا رآها جعفر أعجب بها قبل أن يستنطقها. ثم استنطقها فتحدثت حديثاً أخذ بمجامع قلبه. فقال جعفر لمولاها: قل ما تشاء. فقال الشيخ: لا أحدث أمراً قبل أن أسألها، ولولا الضر الذي نحن فيه ما عرضتها للبيع، ولكن حالي كما يشاهده الوزير وعلي فوق ذلك دين كثير فدحني، ومن أجل ذلك كله فارقت وطني

وعرضت للبيع ثمرة قلبي، فقال جعفر: ما مقدار ما في نفسك إن أردت بيعها؟ قال: ثلاثون ألف دينار. فقال جعفر: هي لك إن بعتنيها.

فلما سمعت الجارية ذلك بكت ورأى الشيخ بكاءها فبكى وأقبل على جعفر ومن حضر معه وقال: أشهدكم الله أنها حرة قد اعتقتها وجعلت عِتقها صداقها، والله لا ملّكتها أحداً أبداً.

فغضب جعفر لذلك وأقبل هو ومن حضر على الشيخ يؤنبونه ويستجهلونه ويقولون له: ضيّعت هذا المال الجليل بحمقك وجهلك. فقال: النفس أولى أن يُبقى عليها من المال والرزاق هو الله.

وعاد جعفر إلى أبيه فأخبره بما كان من الرجل ورفضه بيع جاريته بذلك الثمن العظيم. فقال له: وما صنعت بها؟ قال: تركتهما وانصرفت. قال أبوه: ويحك! أما أنفت أن تنصرف عن متحابين مثلهما فقيرين ولا تجبر حالهما؟ أرضيت أن يكون الكوفي أسمح منك؟ ثم دعا بغلام وأعطاه ثلاثين ألف دينار فحملها الغلام إلى الشيخ في الكوفة، فأخذها الشيخ وحمد الله وقرّ عيناً بماله وبجاريته.

٣ ـ الشعراء وحبّهم للجواري

الشعراء الذين أغرموا بالجواري كثيرون. وقد اخترت من حكاياتهم مع الجواري حكاية الشاعر عُكاشة العَميّ مع الجارية نُعيم وكانت هذه جارية لبعض الهاشميين. وحدث سعيد بن حميد الكاتب عن أبيه قال:

كان عكاشة العَميّ صديقاً لي وإلفاً، وكنا نتعاشر ولا نكاد نفترق ولا يكتم أحدنا صاحبه شيئاً، فرأيته في بعض أيامه متغير الهيئة عما عهدته مقسم القلب والفكر غير آخذ ما كنا فيه من الفكاهة والمزاح

فسألته عن حاله فكاتمنيها ملياً ثم أخبرني أنه يهوى جارية لبعض الهاشميين يقال لها نُعيم وأن مرامه عليها مستصعب لا يراها إلا من جناح لدارهم وكانت تشرف عليه بين الفينة والفينة فتكلمه كلاماً يسيراً ثم تذهب. فعاتبته على ذلك وزجرته فلم يزدجر وتمادى في أمره. ثم جاءني يوماً وقال لي: قد وعدتني الزيارة لأن شكواي إليها طالت. فقلت له: فهل حققت لك الوعد على يوم بعينه؟ قال: لا إنما سألتها الزيارة فقالت: نعم أفعل. فقلت له: هذا والله أعجب من سائر ما مضى، وأي شيء لك هذا من فائدة بلا تحصيل وعد؟ فقال لي: يا أخي إن لي في قولها نعم فرحاً كبيراً. فقلت له: أنت أقنع الناس. ثم جاءني بعد يومين وهو كاسف البال مهموم. فقلت له: ما لك؟ فقال: مضيت إلى نعيم فتنجزت وعدها، فقالت لي إن لي صاحبة أستنصحها وأعلم أنها تشفق علي كما تشفق الأخت على أختها والأم على ولدها، وقد نهتني عن ذلك وقالت لي إن في الرجال غدراً ومكراً ولا آمن أن تفتضحي ثم لا تحصلي منه على شيء. وقد آنقطعت عني. ثم أنشدني:

علامَ حبل الصفاء منصرم
وفيم عني الصدود والصَّمم
يا من كنينا عن اسمه زمناً
نتبع مرضاته ونجترم
قد عيل صبري وأنت لاهية
عني وقلبي عليك يضطرم
مَن جذّ حبل الوفاء سيدتي
منك ومَن سامني له العدم
فكم أتاني واشٍ يعيبكم
فقلتَ: إخسأ لأنفك الرغَم

أنــتَ الفـدا والحــمـى لمــن عـبـتَ
فــآرجــع صــاغــراً لــك الــنــدم

ثم طـال تردداه إليهـا وآستصلاحـه لهـا. ثم قـال: فلم ألبث أن جـاءتني رقعـة منـه في يـوم خميس يعلمني فيهـا أنها قـد حصلت عنــده ويستدعيني. فذهبت إليه. وتوارت هي عني ساعة وهـو يقول لهـا عني أن لا فرق بيني وبينه، فخرجت فآجتمعنا وغنت له غناء حسناً إلى وقت العصر ثم انصرفت. وأخذ عكاشة دواة ورقعة فكتب فيها:

ســقـيــاً لمــجــلســنــا الــذي كــنّــا بــه
يــوم الخــمــيس جمــاعــة أتــرابــا
في غــرفــة مــطرت ســماوة سـقـفـهــا
بـحيــا الـنـعـيـم مـن الـكـروم شرابـا
إذ نـحنُ نُـسقـاهـا شَـمـولاً قـرقـفـاً
تــدع الـصـحـيـح بعـقـلـه مـرتـابـا
حمــراءَ مــثـل دم الــغــزال وتــارة
بــعــد المــزاح تخــالهــا زريــابــا
مــن كــفّ جــاريــة كــأن بــنــانَها
مــن فـضــة قــد قُـمـعـت عـنـابـا
تــزداد حسنـاً كـأسهـا من كـفِهـا
ويـطـيـب مـنـهـا نشرهـا أحـقـابـا
وإذا المـزاح عـلا فـشـحّ جبـيـنَهـا
نُـقشـت بـألـسـنـة المـزاح حَـبـابـا
وتخـال مـا جمعت فـأحـذق سِـمـطه
بـالـطوق ريق حبـائـب ورُضـابـا

والعود متبع غناء خريدة

غرداً يقول كما تقول صوابا

وكأنّ يمناها إذا نطقت به

تلقي على يدها الشمال حسابا

وهناك حف بنا النعيم وصار من

دون الثقيل لنا عليه حجابا

آليت لا ألحى على طلب الهوى

متلذذاً حتى أكون ترابا

قال: ثم قدم قادم من بغداد فاشترى نعيم هذه من مولاها ورجع بها إلى بغداد فعظم أسف عكاشة وحزنه عليها واستهيم بها طول عمره فآستحالت صورته وطبعه وخلقه إلى أن فرّق الدهر بيننا. وكان أكثر وكده وشغله أن يقول فيها الشعر وينوح به عليها. وقال سعيد بن حميد: أنشدني أبي ما قاله عكاشة فيها:

ألا ليت شعري هل يعودن ما مضى

وهل راجع ما مات من صلة الحبل

وهل أجلسنْ في مثل مجلسنا الذي

نعمنا به يوم السعادة بالوصل

عشيةَ صبّت لذةُ الوصل طيبَها

علينا وأفنان الجنان جنى البذل

وقد دار ساقينا بكأس رَوية

تُرحل أحزان الكئيب مع العقل

وشحّ شمولاً بالمزاج فطيّرت

كألسنة الحيات خافت من القتل

فبتنا وعين الكأس سحّ دموعها

لكل فتى يهتز للمجد كالنصل

وقينتنا كالظبي تسمح بالهوى
وبث تباريح الفؤاد على رِسل
إذا ما حكت بالعود رجع لسانها
رأيت لسان العود من كفها يملي
فلم أر كاللذات أمطرت الهوى
ولا مثل يومي ذاك صادفه مثلي

وقال عكاشة أشعاراً كثيرة فيها حزناً على فراقه لها وذكراً لذلك المجلس معها حتى اشتهر أمره وغنى بشعره المغنون. ومما كان يغني من شعره في تلك الجارية قوله:

لهفي على الزمن الذي	ولّى ببهجته القصيرِ
قد كان يُونقني الهوى	ويُقِرّ عيني بالسرور
إذ نحن خُلان الهوى	ريحاننا عبق العبير
وغناؤنا وصف الهوى	نلتذ بالحب اليسير
وجه التواصل بيننا	في الحسن كالقمر المنير
إيماؤنا يحكي الكلا	مَ وسِرّنا فَطِن المشير
وحديثنا بحواجب	نطقت بألسنة الضمير
بل رسلنا الكتب التي	تجري بخافية الصدور

٤ ـ جارية عبد الله بن جعفر

كان عند عبد الله بن جعفر جارية مغنية يقال لها عُمارة وكان وجده بها عظيماً وكان لها منه مكان لم يكن لأحدٍ من جواريه. فلما وفد عبد الله بن جعفر على معاوية خرج بالجارية معه. فآتفق أن زاره يوماً يزيد بن معاوية فأخرجها عبد الله ورآها يزيد. فلما نظر إليها وسمع

غناءَها وقعت في نفسه. ولكنه كتم عشقه لها عن كل إنسان إلى أن مات معاوية وأصبح يزيد خليفة من بعده، فاستشار بعض من قدم عليه من أهل المدينة ومن يثق به في أمر الجارية وكيف الحيلة فيها. فقيل له إن أمر عبد الله بن جعفر لا يرام ومنزلته من الخاصة والعامة ما قد علمتَ، وأنت لا تستجيز إكراهه، وهو لا يبيعها بشيء أبداً، وليس يغني في هذا إلا الحيلة. فقال يزيد: أنظروا لي رجلاً عراقياً له أدب وظرف ومعرفة، فطلبوه فأتوا به إلى يزيد، فلما دخل رأى يزيد منه بياناً وحلاوة وفهماً، فقال له: إني دعوتك للأمر إن ظفرت به فهو حظك آخر الدهر، ويكون لك علي يد أكافئك عليها إن شاء الله. ثم أخبره يزيد عن ذلك الأمر. فقال العراقي: إن عبد الله بن جعفر ليس يرام ما في قلبه إلّا بالخديعة ولا يقدر أحد على ما سألت، وأرجو أن أكون ذلك الأحد والقوة بالله. فأَعِنّي بالمال. فقال له يزيد: خذ ما أحببت.

فأخذ الرجل المالَ واشترى من طُرَف الشام وثياب مصر واشترى متاعاً للتجارة، ثم شخص إلى المدينة فأناخ بجوار عبد الله بن جعفر وأكترى منزلاً إلى جانبه. ثم التقى به وقال له إنه رجل من أهل العراق قدم بتجارة وأحب أن يكون في جواره وكنفه إلى أن يبيع ما جاء به. فبعث عبد الله بن جعفر إلى قهرمانه وأمره أن يكرم الرجل العراقي ويوسع عليه في منزله. فلما اطمأن إليه العراقي أهداه بغلة فارهة وثياباً فاخرة من ثياب مصر والعراق وألطافاً أخرى وكتب معها إليه يقول: يا سيدي إني رجل تاجر ونعمة الله علي سابغة، وقد بعثت إليك بشيء من تحف وكذا من الثياب والعطر، وبعثت ببغلة خفيفة العنان وطيئة الظهر، فأنا أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ إلّا قبلتَ هديتي. فأمر عبد الله بقبض الهدية وخرج إلى الصلاة، ولمّا عاد من صلاته مرّ بالعراقي في منزله، فقام إليه العراقي وقبّل يده، فرأى عبد الله منه أدباً

وظرفاً وفصاحة فأُعجب به وسرّ بنزوله عليه. فجعل العراقي في كل يوم يبعث إلى عبد الله بطُرفه وهداياه. فقال عبد الله: جزى الله ضيفنا هذا خيراً فقد ملأنا شكراً وما نقدر على مكافأته. فدعا عبد الله العراقيَّ، فلما حضر دعا عبد الله بجاريته عمارة في جواريه. فلما استقرّ بهما المجلس وطاب وسمع العراقي غناء عمارة تعجب وجعل يزيد من عجبه. فقال له عبد الله: هل رأيت مثل عمارة؟ فقال: لا والله يا سيدي ما رأيت مثلها، وما تصلح إلاّ لك، وما ظننت أن يكون في الدنيا مثل هذه في حسن وجهها وفي حسن عملها. ثم قال: وكم تساوي عندك؟ فقال العراقي: ما لها ثمن إلا الخلافة فقال عبد الله: إنما تقول هذا لتزيّن لي رأياً فيها وتجتلب سروري. فقال العراقي: يا سيدي والله إني لأُحب سرورك ولكني ما قلت لك إلا الجد، وبعد فإني تاجر أجمع الدرهم إلى الدرهم طلباً للربح ولو أُعطيتها بعشرة آلاف دينار لأخذتها. فقال عبد الله: بعشرة آلاف دينار؟ فقال العراقي: نعم. ولم تكن في ذلك الزمان جارية تعرف بهذا الثمن. فقال عبد الله: أنا أبيعكها بعشرة آلاف. فقال العراقي: قد أخذتها. قال: هي لك. فقال العراقي: قد وجب البيع. وانصرف العراقي إلى منزله. ونام عبد الله تلك الليلة، ولمّا أصبح لم يشعر إلاّ بالمال قد جيء به، وقيل لعبد الله إن العراقي قد بعث بعشرة آلاف دينار وقال: هذا ثمن عمارة، فردّ عبد الله المال وكتب إلى العراقي يقول له: إنما كنت أمزح معك وأعلمك أن مثلي لا يبيع مثلها. فرد عليه العراقي يقول: جعلت فداك، إن الجد والهزل في البيع سواء. فقال له عبد الله: ويحك، ما أعلم جارية تساوي ما بذلت من المال. ولو أني أبيعها من أحد لآثرتك، ولكني كنت مازحاً وما أبيعها بملك الدنيا لحرمتها بي وموقعها من قلبي. فقال العراقي: إن كنت مازحاً فإني كنت جاداً وما اطلعت على ما في نفسك حتى أعلم أنك كنت مازحاً وقد دفعت إليك ثمن الجارية

وليست تحل لك وما لي من أخذها بد. فمانعه إياها. فقال العراقي: ليست لي بينة على البيع والشراء، ولكني استحلفك عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله. فلما رأى عبد الله الجد قال: بئس الضيف أنت ما طرقنا طارق ولا نزل بنا نازل أعظم بلية منك، أتحلفني حتى يقول الناس: اضطهد عبد الله ضيفه وقهره وألجأه إلى أن استحلفه. أما والله ليعلمن الله عز وجل أني سأبليه في هذا الأمر الصبر والعزاء. ثم أمر قهرمانه بقبض المال منه وبتجهيز الجارية بما يليق بها من الخدم والثياب والطيب. فجهزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار. وأخذ العراقي الجارية وخرج بها.

فلما فصل من المدينة قال للجارية: يا عمارة إني والله ما ملكتك قط ولا أنت لي، ولا مثلي يشتري جارية بعشرة آلاف دينار. وما كنت لأقدم على ابن عم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله فأسلبه أحب الناس إليه، ولكني دسيس من يزيد بن معاوية، وأنتِ له. وفي طلبك بعث بي. فآستتري مني وإن داخلني الشيطان في أمرك أو تاقت نفسي إليك فآمتنعي.

ثم مضى بها حتى ورد دمشق فتلقاه الناس بجنازة يزيد بن معاوية وقد استخلف ابنه معاوية بن يزيد. فأقام الرجل أياماً ثم تلطف للدخول على معاوية بن يزيد، ولما دخل عليه شرح له قصة الجارية، وكان معاوية في زمانه عادلاً نبيلاً ناسكاً فقال للعراقي: الجارية لك وكل ما دفعه إليك يزيد فهو لك وآرحل من يومك ولا أسمع بخبرك في شيء من بلاد الشام. فرحل العراقي عن دمشق وقال للجارية: إني قلت لك ما قلت حين خرجت بك من المدينة فأخبرتك أنك ليزيد، وقد صرتِ الآن لي، وأنا أشهد الله أنك لعبد الله بن جعفر وإني قد رددتك إليه، فآستتري مني. ثم خرج بها حتى قدم المدينة فنزل قريباً من

عبد الله، ودخل على عبد الله بعض خدمه فقال له: هذا العراقي ضيفك الذي صنع بنا ما صنع قد نزل في جوارنا لا حياه الله. فقال عبد الله: مه، أنزلوا الرجل وأكرموه.

فلما استقر العراقي بعث برسالة إلى عبد الله يقول فيها: جُعلت فداك إن أمرت أن تأذن لي أُذنة خفيفة لأشافهك بشيء. فأذن له عبد الله، فلما دخل عليه سلَّم وقبّل يده، فقربه عبد الله. ثم قصّ العراقي عليه القصة حتى إذا فرغ منها قال: قد وهبتها والله لك قبل أن أراها أو أضع يدي عليها، فهي لك ومردودة عليك. وقد علم الله تعالى أني ما رأيت لها وجهاً إلا عندك. ثم بعث العراقي إلى الجارية فجاءت وجاء معها ما كان جهزها العراقي موفوراً، فلما نظرت إلى عبد الله خرت مغشياً عليها، وأهوى إليها عبد الله فضمها إليه. فجعل عبد الله يقول والدموع تجري على خديه: أحُلم هذا أم حق، ما أصدق بهذا. فقال العراقي: جعلت فداك، قد ردّها عليك إيثارك الوفاء وصبرك على الحق وانقيادك له. فقال عبد الله: الحمد لله اللهم إنك تعلم أني تصبرت عنها وآثرت الوفاء وأسلمت لأمرك فرددتها عليّ بمنّك، فلك الحمد. ثم قال: يا أخا العراق ما في الأرض أعظم منك مِنة وسيجازيك الله تعالى. ورحل العراقي محموداً.

الجار والجارة

حفظ الجوار عند العرب منقبة كريمة وفضيلة عظيمة وكانوا يتباهون بحفظهم الجار والجوار وصيانة الجارة، وفي العرب رجال اشتهروا بحفظ الجوار منهم قعقاع بن شَور، وكعب بن مامة جار أبي دؤاد الأيادي ومُدْلِج بن سويد الطائي المعروف بمجير الجراد وربيعة بن مُكدَّم المعروف بمجير الظُّعْن والبسوس التميمية التي أضرمت حرب البسوس محافظة على جارها، ومجير الطير وهو ثور بن شحمة العنبري.

وأبو دؤاد الأيادي يقال له الحُذاقي، وذكره طرفة بن العبد فقال:

إني كفانيَ من همّ هممتُ به　　　جار كجار الحذاقي الذي اتَّصَفا

ويقول قيس بن زهير في أبي دؤاد:

أحاول ما أحاول ثم آوي
إلى جار كجار أبي دؤاد

وأبو دؤاد هو حنظلة بن الشرقي من قبيلة إياد من أهل برية العراق وهو شاعر قديم من فحول الشعراء وكان مشهوراً برعاية الجار وجاره يضرب به المثل في غاية الرعاية والإكرام. وهذا الجار هو

كعب بن مامة. فإن كعباً كان إذا جاوره رجل ومات وَدَاه وإن هلك لذلك الجار بعير أو شاة أخلف عليه وعوَّضه عن البعير أو الشاة. فجاءه أبو دؤاد الشاعر فكان كعب يكرمه غاية الإكرام ما دام في جواره، فصار يقال: كجار أبي دؤاد.

وقول قيس بن زهير في جار كجار أبي دؤاد هو في رجل اسمه ربيعة بن قُرْط من بني أبي بكر بن كلاب، وقال فيه قيس:

أحاول ما أُحاول ثم آوي
إلى جار كجار أبي دؤاد
منيع وَسْط عِكرمة بن قيس
وَهوب للطريف وللتِلاد
كفاني ما خشيت أبو هلال
ربيعةُ فانتهت عني الأعادي
تظل جياده يَسْرُبن حولي
بذات الرِّمْت كالحِدَأ الغوادي

وقول كعب بن مالك:

فلست كجار جار أبي دؤاد ولا الأسَديّ جار أبي العلاء

هو في رجل اسمه جُبَار بن سُلْمَى بن مالك بن جعفر، وكان هذا قد أسلم وكان يقول: مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلاً من المسلمين يومئذ بالرمح بين كتفيه ونظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: فُزتُ والله، فسألت عن ذلك فقيل لي إن الرجل الذي طعنته فاز بالشهادة في سبيل الله فقلت: فاز لعمر الله. وكان أبو البراء قد أجار رجالاً من المسلمين بعثهم النبي ﷺ فغضب عامر بن الطفيل على أبي البراء هذا، فقال حسان بن ثابت شعراً يحرض بني أبي البراء على عامر بن الطُّفيل، وقال كعب بن مالك شعراً في ذلك:

لقد طارت شَعاعاً كُلَّ وجه
خِفارة ما أجار أبو براءِ
فمثل مسهَّب وبني أبيه
بجنب الرَّدْهِ من كنفي سواءِ
بني أم البنينَ أما سمعتم
دعاءَ المستغيث مع المساءِ
وتنويه الصريخ بَلَى ولكن
عَرَفتم أنه صَدْق اللقاءِ
فما صَغِرتْ عِياب بني كلاب
ولا الفُرَطَاءِ من ذم الوفاءِ
أعامِرُ عامِرَ السوآتِ قِدْماً
فلا بالعَقل فُزتَ ولا السناءِ
أأخفرتَ النبيّ وكنتَ قِدماً
إلى السوآتِ تجري بالعراءِ
فلستَ كجار جار أبي دؤاد
ولا الأسديّ جارِ أبي العلاءِ
ولكن عارُكم داءٌ قديم
وداءُ الغدر فآعلم شرّ داءِ

* * *

أما مجير الجراد فهو مُدْلِج بن سويد الطائي، ومن حديثه أنه خلا ذات يوم في خيمته فإذا هو بقوم من طيّىء ومعهم أوعيتهم، فقال لهم: ما خطبكم؟ فقالوا: جراد وقع بفنائك فجئنا لنأخذه. فركب مدلج فرسه وأخذ رمحه ثم قال للقوم: والله لا يَعْرِضَنّ له أحدٌ منكم إلّا قتلته، إنكم رأيتموه في جواري ثم تريدون أخذه. فلم يزل مدلج

يحرس الجراد حتى حَمِيت عليه الشمس وطار، فقال للقوم: شأنكم به الآن فقد تحوّل عن جواري!

ويقال إن مجير الجراد هو حارثة بن مُرّ أبو حنبل، وفيه يقول شاعر من طيّء:

ومنا ابن مُرّ أبو حنبل
أجار من الناس رَجْلَ الجرادْ
وزيدٌ لنا ولنا حاتم
غِيَاثُ الورى في السنين الشِّدادْ

ويقال في المثل: أحمى من مجير الجراد.

* * *

ومجير الظُّعن هو ربيعة بن مُكدَّم الكناني، ومن حديثه أن نُبَيْشة بن حبيب السلمي خرج غازياً فلقي ظُعْناً (أي نساءً ظاعنات) من كنانة بالكديد فأراد أن يحتوي الظعن فمانعه ربيعة بن مُكدَّم في فوارس، وكان غلاماً له ذؤابة، فشدّ عليه نبيشة وطعنه في عضده، فأتى ربيعة أُمّه وقال:

شُدّي عليّ العَصبَ أمَّ سَيّارْ   فقد رُزِئتُ فارساً كالدينارْ

فقالت أمه:

إنا بني ربيعةَ بن مالكْ   نُرزأ في خيارنا كذلكْ
من بينِ مقتولٍ وبينِ هالكْ

ثم عصبته أمه واستسقاها ماء، فقالت له: إذهب فقاتل القوم فإن الماءَ لا يفوتك. فرجع وكرّ على القوم فكشفهم ورجع إلى الظَّعن وقال: إني لمائت، وسأحميكنّ ميتاً كما حميتكنّ حيًّا، وذلك بأن أقِف بفرسي على العقبة وأتكىء على رمحي، فإن فاضت نفسي كان الرمح عمادي، فالنجاءَ النجاء. فقطعنَ العقبة ووقف هو بإزاء القوم على فرسه متكئاً على رمحه، ونزفه الدم وفاضت نفسه، والقوم بإزائه مُحجمون عن

الإقدام عليه. فلمّا طال وقوفه في مكانه ورأوه لا يزول عنه رموا فرسه فقمص وخرّ ربيعة لوجهه، فطلبوا الظعن فلم يلحقوهن. ويقال في المثل: أحمى من مجير الظُّعن، والظعن هنا بمعنى الظعائن جمع ظَعِينة وهي المرأة المسافرة على جمل أو بَعير.

* * *

ومجير الطير هو ثور بن شحمة العنبري فإنه كان يحمي الطير إذا نزلت بأرضه ويمنعها من أن تصاب بأذى.

ويحكى أن زياداً الأعجم الشاعر وفد يوماً على حبيب بن المهلّب بن أبي صُفْرة فأنزله حبيب على أبيه فأكرمه المهلب وأنزله وجلس حبيب يوماً مع زياد ذات يوم في بستان فغنت حمامة على فنن على إحدى الأشجار فطرب لغنائها زياد وقال له حبيب: إنها فاقدة إلفاً كنت أراه معها، فقال زياد: وهذا أشد لشوقها، ثم أنشأ يقول:

تغنَّيْ أنت في ذممي وعهدي
وذمة والدي أن لا تضاري
وعُشّك أصلحيه ولا تخافي
على زُغُبٍ مصغّرة صغار
فإنكِ كلما غنيت صوتاً
ذكرتُ أحبتي وذكرتُ داري
فإما يقتلوكِ طلبت ثأراً
لأنك يا حمامة في جواري

فضحك حبيب وقال لغلام هناك: يا غلام هَلُمّ القوسَ، فجاء الغلام بها، ففوّق حبيب سهماً ورمى الحمامة به فأصابها ووقعت ميتة، فنهض زياد مغضباً وقال: أخفرت يا أبا بِسطام ذمتي وقتلت جاري. وشكاه إلى المهلب فغضب المهلب على حبيب وقال له: أما

علمتَ أن جار أبي لُبابة جاري وذمته ذمتي، والله لأُلزمنَّك دِيَة الحرّ وألزمه بدفع ألف دينار. فدفعها حبيب له. فقال زياد:

فلِلّه عينا من رأى كقضية ... قضى لي بها قَرْم العراقِ المهلّبُ
رماها حبيب بن المهلب رمية ... فأثبتها بالسهم والسهم تَغْرُب
فألزمه عَقل القتيل ابن حرة ... وقال حبيب إنما كنت ألعب
فقال: زياد لا يروّع جاره ... وجارة جاري مثل جاري وأقرب

❋ ❋ ❋

وكان العرب يعرفون للجار حقه ويعرفون للجارة حقها، وحق الجارة أن لا يكشف لها ستر وأن لا يسأل عن أخبارها وأن لا تزار في غياب زوجها وأن لا يُمشى في ساحة بيتها وأن لا تكلَّم سرًّا وأن لا ينظر إليها بريبة إذا برزت أو ظهرت وهي تجول في بيتها. ويقول بشار بن بشر:

وإني لعفّ عن فكاهة جارتي
وإني لَمشنُوءٌ إليَّ اغتيابها
إذا غاب عنها بعلُها لم أكن لها
بزوّار ولم تأنس إلي كلابها
ولم أكُ طَلاّباً أحاديثَ سِرّها
ولا عالماً من أي حَوك ثيابها

ويقول ابن مية العبسي:

لا أحرم الجارة الدنيا إذا اقتربت
ولا أقوم بها في الحي أُخْزيها
ولا أكلمها إلاّ علانيةً
ولا أخبّرها إلا أناديها

ويقول مسكين الدارمي:

ما ضرّ جاراً لي أجاوره
أن لا يكون لبابه سترُ

أعــمــى إذا مــا جــارتي بــرزت

حــتى يُــغَــيِّــبَ جــارتي الخِــدْر

ويقول عقيل بن عُلَّفة:

ولست بســائــلٍ جــارات بيتي أغُــيَّــاب رجــالــك أم شــهــود

وكان العرب يفتخرون بهذه العفة ويُمدحون بها، من ذلك قول حاتم الطائي:

ومــا تشتكيني جــارتي غــير أنني إذا غــاب عنها بعلها لا أَزورهــا

ومثله قول قيس بن الخطيم:

ومــا لمعت عيني لــغــرّة جــارتي ولا وَدَّعت بــالــذم حــين تبــين

وقالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

ولم تــره جــارة يمشي بســاحتهــا لــريبةٍ حــين يُخلي بيتــه الجار

وقال كعب يرثي أخاه أبا المغوار:

وإن جــارة حــلّت وبــاتــت وفــى بهــا

فــبــانــت ولم يُهْــتــك لجــارتــه سِــتر

ويقول حاتم الطائي:

فــأقــســمــتُ لا أمشي إلى سِرّ جــارةٍ

مــدى الــدهــر مــا دام الحــمام يُــغَــرّد

ويقول عروة بن الورد مفتخراً:

وإن جــارتي ألــوت ريــاح بــبــيــتــهــا

تــغــافلت حتى يســتر البيتَ جــانبــه

ويقول حاتم الطائي مثل قوله الأول:

ومــا ضرّ جــاراً يــا ابنــة القــوم فــآعلمي

يجــاورني أن لا يــكــون لــه ســتر

بعينيّ عن جارات قوميَ غفلة
وفي السمع مني من حديثهمُ وقر

أما الجار فله حرمة عظيمة، وكان العرب يحمون الجار ما دام في جوارهم وكانوا يكرمون مثواه ما دام نازلاً فيهم، وكان للجار عندهم حق يعرفونه وعهد وثيق ويقول أبو دؤاد الأيادي:

ترى جارنا آمناً وسطنا يروح ويغدو وثيق السبب
إذا ما عقدنا له ذمة شددنا العِناجَ وعقد الكرَبَ

ومثله قولِ الحطيئة:

قومٌ إذا عقدوا عقداً لجارهم
شَدُّوا العِناجَ وشدّوا فوقه الكَرَبا

ومن أبلغ ما قيل في إكرام الجار قول يزيد بن حمّاد السكوني:

ومن تكرّمهم في المحل أنهم لا يعلم الجار فيهم أنه جار

وكانوا يفتخرون بإكرام الجار، كقول المثقب العبدي:

أُكرم الجار وأرعى حقّه إن عرفان الفتى الحقَّ كرم

وكان العرب يذمون من يغدر بالجار، ومن لا يمنعه من عدوه. كقول العازب بن براء:

فجارك عند بيتك لحم ظبي وجاري عند بيتي لا يرام

ويقول أبو قطّاف الشيباني:

ونحن أناسٌ لا يُروّع جارنا
مخافة ضَيم أو حذار تهضُّم
إذا أُسلِم الجيران قلنا لجارنا
أمنتَ فلا تخشَ الحوادث وآسْلَمِ

ويقول حُجر بن خالد الثعلبي:

ونحن الذين لا يُروّع جارنا وبعضهمُ للغدر صُمّ مسامعه

وروى الطبري أن ابن الحضرمي وكان قد قدم البصرة من قبل معاوية، تحول إلى دار المُجاشعي من دور بني تميم في عدة رجال من أصحابه فجاءهم جارية بن قُدامة السعدي فأضرم عليهم الدار فأحرقهم وهُدِمت عليهم ولم يصنع بنو تميم شيئاً لحماية جارهم، فقال عمرو بن العَرندس العوْدي يهجو بني تميم:

رَدَدْنا زياداً إلى داره
وجار تميم دخاناً ذَهَبْ
لحى اللّه قوماً شوَوا جارهم
ولِلشاء بالدرهمين الشّصَب
ينادي الخناقُ وحُمّاتُها
وقد سمطوا رأسه باللّهب
ونحن أناسٌ لنا عادة
نحامي عن الجار أن يُغتصب
حميناه إذ حلّ أبياتنا
ولا يمنع الجار إلا الحسب
ولم يعرفوا حرمة للجوا
رِ إذ أعظَمَ الجارَ قوم نُخُب
كفعلهم قبلنا بالزبير
عشيةَ إذ بَزّه يُستَلب

وقال جرير بن عطية بن الخَطفَى:

غدرتم بالزبير وما وفيتم
وفاء الأزد قد منعوا زيادا
وأصبح جارهم بنجاةِ عِزّ
وجار مجاشع أضحى رمادا

فلو عاقدت حبل أبي سعيد

لذاد القوم ما حمل النجادا

وأدنى الخيل من رَهَج المنايا

وأغشاها الأسِنة والصِعادا

والزبير هو الزبير بن العوام وزياد هو الذي استخلفه عبد الله بن عباس على البصرة لمّا خرج منها إلى علي رضي الله عنه في الكوفة.

* * *

حوادث الفتك عند العرب

الفتك هو البطش. والبطش هو الأخذ بالعنف والسطوة بسرعة، فإذا فتك المرء بعدوّه قتله وهو قادر عليه وكان القتل عنيفاً سريعاً. وبهول الفتك وشدته ذكر العرب عدداً من حوادثه وسمّوا الحادثة من هذا النوع بالفتكة وسموا الحوادث بالفتكات، وقسموها قسمين: فتكات الجاهلية، وفتكات الإسلام.

وأشهر فتكات الجاهلية ثلاث فتكات: وهي فتكة البَرّاض وفتكة الحارث بن ظالم وفتكة عمرو بن كلثوم. فقد فتك البراض بعُروة الرحّال وفتك الحارث بن ظالم بخالد بن جعفر بن كلاب، وفتك عمرو بن كلثوم بعمرو بن هند.

والبرّاض هو البراض بن قيس الكناني. ومن خبره أنه كان في حيّه عيّاراً فاتكاً يجني الجنايات على أهله فخلعه قومه وتبرأوا من صنعه، ففارقهم وقدم مكة وحالف حرب بن أمية، ثم نبا به المقام بمكة ففارق الحجاز إلى العراق وقدِم على النعمان بن المنذر فقام ببابه حتى أذِن له. وكان النعمان يبعث كل عام إلى سوق عكاظ في الحجاز لَطِيمة أي قافلة تحمل الطيبَ وأمتعةً تباع هناك، ولمّا حان موعد بعث اللطيمة سأل النعمان من حضر في مجلسه وكان منهم البرّاض وعُروة بن عُتبة المعروف

بالرحّال: مَنْ يجير لي لطيمتي حتى يقدمها عكاظ؟ فقال البرّاض: أبيتَ اللعنَ أنا مجيرها إلى كنانة. فقال النعمان: ما أريد إلاّ رجلاً يُجيرها على الحيَّين قيس وكنانة. فقال عروة الرحال: أبيتَ اللعن، أهذا العيار الخليع يجمُل به أن يُجير لطيمةَ الملك، أنا والله مُجيرها على أهل الشيح والقيصوم من نجدٍ وتهامة. فقال النعمان: خذها فأنت لها. فرحل عروة بها، وكان البراض قد اضطغنها على الرحّال فتبع أثره حتى إذا صار بين ظهراني قوم بني كنانة، وثب إليه بسيفه فضربه ضربةً خرّ منها ميتاً واستاق عير النعمان، فهذه الفتكة، صارت مضرب المثل. فصار يقال: أفتك من البراض، وقال فيها أبو تمام:

والفتى من تعرّضته الليالي
والفيافي كالحية النضناضِ
كلَّ يوم له بصرف الليالي
فتكة مثلُ فتكة البرّاض

***

وفتكة الحارث بن ظالم كانت بخالد بن جعفر بن كلاب، ويقول أبو عُبَيدة كان الذي هاج الأمر بين الحارث بن ظالم وخالد بن جعفر أن خالد بن جعفر أغار على رهط الحارث بن ظالم من بني يربوع بن غَيظ بن مُرّة من بني ذُبْيان وكان الرهط في واد يقال له حُراض، فقتل خالد الرجال حتى أسرف في قتلهم واستبقى النساء، وكان الحارث يومئذٍ غلاماً وبذلك نجا من القتل، ولكن أباه ظالماً أصيب بجرح بالغ في تلك الواقعة ومات يومئذ. وكانت النساء تبكي رجالها وكان الحارث بن ظالم يبكي مع النساء، فنشأ على البغض. ثم إن خالد بن جعفر قتل بعد ذلك زهيرَ بن جَذيمة من غطفان من بني عبس. فاستحق بذلك عداوة عبس وذبيان. وكان هو رأس هوازن.

ثم أتى خالد بن جعفر النعمان بن المنذر، ملك الحيرة لينظر كيف مقامه وقدره عند الملك وأتاه بفرس على سبيل الهدية. فلمّا دخل على النعمان وجد عنده الحارث بن ظالم وكان قد أهدى له فرساً. فقال خالد للنعمان: زعم الحارث أبيت اللعن أن الفرس الذي أهداه إليه من خيل أبيه ومن الخيل التي مدحتها، وليس الأمر كذلك. فغضب النعمان على الحارث بن ظالم. ثم اجتمع خالد والربيع بن زياد والحارث وغيرهم ممن وفدوا على النعمان في مجلس كان فيه شراب وغناء. فقال خالد لقينة هناك أن تغني:

دارٌ لهندٍ والرَّباب وَفَرْتَنى ولبئسَ قول حوادث الأيام

وهند والرباب وفرتنى خالات الحارث بن ظالم، فغضب الحارث وآمتلأ غيظاً وقال لخالد: ما تزال تتبع أولى بآخرة. ثم إن النعمان دعا الذين وفدوا عليه ومنهم خالد بن جعفر والحارث بن ظالم وقدّم لهم تمراً، فجعل خالد يأكل التمر ويلقي النوى أمام الحارث استخفافاً به. ولـمّا نفِذ التمر قال خالد: أبيتَ اللعن، انظر إلى ما بين يدي الحارث بن ظالم من النوى، فإنه أكل التمر كلّه ولم يترك لنا منه شيئاً. فقال الحارث: أنا أكلت التمر وألقيت النوى، أما أنت يا خالد فقد أكلت التمر بنواه. فغضب خالد، وكان إذا قال قولاً لا ينازع فيه، وقال للحارث: أتنازعني في قولي يا حارث وقد قتلت قومك وتركتك يتيماً في حجور النساء. فقال الحارث: ذلك يوم لم أشهده. وخرج الحارث إلى بنت عَفْزَر فشرب عندها وقال لها أن تغني:

تعلَّم أبيتَ اللعن أنيَ فاتك
من اليوم أو من بعده بآبن جعفر
أخالدُ قد نبّهتني غير نائم
فلا تأمننْ فتكي مدى الدهر وآحذر

أعَـيَّرتـني أن نـلتَ مـنـا فـوارسـاً
غَـداةَ حُـرَاضُ مثـلُ جَنّـات عَـبْقـر
أصـابهـمُ الـدهـرُ الختـور بـخـتره
ومـن لا يـقِ اللّـهُ الحـوادثَ يـعـثر
فـعـلّك يـومـاً أن تـنـوءَ بضربـة
بـكـفّ فـتى في قـومـه غـيرَ جيـدر
يَـعَضّ بها عُـليـا هـوازنَ والمـنى
لِـقـاءُ أبي جَـزءٍ بـأبـيضَ مِـبْـتَر

وأبو جَزء هو خالد بن جعفر. وبلغ هـذا القول خـالدَ بن جعفـر فلم يحفِل به. ولكنّ عبد الله بن جَعدة وهو ابن أخت خالد خاف على خالـه من الحـارث فقـال لابنٍ لـه: يـا بُنَيَّ آئتِ أبـا جـزء فـأخـبره أن الحارث بن ظـالـم سـفيـه مـوتور فـاخفِ مبيتك الليلة فـإنه قـد غلبه الشراب. فلما سمع خالد قول ابن أخته نام بين ابن أخته ورجـل اسمه عروة يَحرسه. وعلم الحارث أن ابنَ جعدة وعُروة كانا يحـرسان خـالداً. فـأقبل حتى انتهى إلى ابن جعـدة فتعداه ثم مضى إلى خـالد وهـو نـائم فضربه بالسيف فقتله. وقال لعروة: أَخبر الناسَ أني قتلتُ خالداً.

* * *

وفتكـة عمرو بن كلثـوم كانت بعمـرو بن هند. ومن خـبرهـا أن عمـرو بن هند الملك قـال ذات يومٍ لنـدمائـه: هل تعلمـون أحـداً من العرب تأنف أمـه من خدمـة أمي؟ قالـوا: نعم. أم عمرو بن كلثـوم. قال: وَلِمَ؟ قالوا: لأن أباها مُهَلْهِل بن ربيعة وعمّها كليب بن وائـل أعزّ العرب، وبعلَها كلثوم بن مالك أفرس العرب وابنَها عمـرو سيد قـومه. فأرسل عمرو بن هند إلى عمـرو بن كلثوم يسـتزيره (أي يـطلب إليه أن يأتي إليه زائراً) ويسألـه أن يُزيـر أُمَّه أُمَّـه (أي يجعل أم عمـرو بن كلثوم

تـزور أم عمرو بن هنـد). فقبـل عمـرو بن كلثـوم الـدعـوة وأقبـل من الجـزيرة في شـمال العراق إلى الحـيرة في جماعـة من بنـي تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل أم عمرو بن كلثوم في ظُعُن من نسـاء بني تغلب. وأمر عمـرو بن هند ملك الحـيرة بـرِواق فضُرب فيـما بـين الحـيرة والفـرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته أن يحضروا. وجـاء عمرو بن كلثـوم ودخل مع جماعة على عمـرو بن هند، ودخلت أم عمـرو بن كلثوم مـع هند أم عمرو بن هند في قبة نصبت في جانب الرِواق.

وكـان عمـرو بن هنـد أمر أُمّـه أن تنحي الخـدم، وبقيت أم عمرو بن هند وأم عمـرو بن كلثوم وحـدهما. فآحتاجت هنـد إلى طبق فآلتفتت إلى ليلى وقالت لها: ناوليني يا ليلى ذلك الـطبق. فقالت ليـلى: لتقم صـاحبة الحـاجة إلى حـاجتها. ولكن هنـد أعادت عليهـا الـطلب وألحّت فصاحت ليلى: وا ذلاه، يا لتغلب!

فسمعها ابنها من الرِواق فعرف الأمر وثار الـدم في وجهه، ونـظر إليـه عمرو بن هنـد فعرف الشر في وجهـه. ووثب عمرو بن كلثـوم إلى سيف لعمـرو بن هند معلق في الـرواق فضرب به رأس عمـرو بن هنـد فقتله.

***

وأشهر فتكات الإسلام ثلاث فتكات وهي: فتكة الجحّاف وفتكة عبد الملك بن مروان بالأشدق عمرو بن سعيد وفتكة المنصور بأبي مسلم الخراساني.

وفتكة الجحّاف كانت في بني تغلب، ومن خبرها أنّ خيلاً من بني تغلب لقـوا عُمـير بن الحُبـاب السُّلَمي فقتلوه مـع غـيره وهـو ابن عم الجحّاف بن حكيم السلمي في إحدى المغاورات التي كانت بسبب الفتنة في الشـام بـين قيس وكلب أثنـاء الانقسـام بـين الـزبـيريـة أتبـاع

عبيد الله بن الزبير والمروانية أتباع مروان بن الحكم في النزاع على الخلافة، ولما اجتمع الناس على مروان ثم على ابنه عبد الملك بن مروان ووضعت تلك الحروب والفتنة أوزارهما دخل الجحّاف بن حكيم السلمي على عبد الملك بن مروان وكان الأخطل عنده. فالتفت الأخطل إلى الجحاف وقال له:

ألا سائل الجحّاف هل هو ثائر
لقتلى أصيبت من سُليم وعامر؟

والأخطل الشاعر تغلبي. فأجابه الجحّاف قائلاً:

بلى سوف أنكيهم بكل مهنّد
وأنكي عميراً بالرماح الخواطر

فخاف الأخطل من الجحّاف واستجار بعبد الملك فأجاره. ثم ذهب الجحّاف وجمع قومه وأتى الرصافة وسار إلى بني تغلب، فصادف في طريقه أربعمائة منهم فقتلهم، ثم سار إلى البِشْر وهو ماء لتغلب فصادف عليه جمعاً من بني تغلب فقتل منهم خمسمئة رجل وقتل النساء والأولاد. ويقال إن عجوزاً هناك صاحت به تقول: حَرَبَكَ اللهُ يا جحّاف! يا مقتّل النساء! فانخزل الجحّاف ورجع. فلما بلغ الخبرُ الأخطل قال:

لقد أوقع الجحّاف بالبشر وقعةً إلى الله منها المشتكى والمُعوَّل

فأهدر عبد الملك دم الجحّاف فهرب إلى الروم، فأقام هناك سبع سنين ومات عبد الملك وخلفه ابنه الوليد فأمّن الجحّاف فرجع. وقالوا في المثل: أفتك من الجحّاف.

***

وفتكة عبد الملك بن مروان كانت بعمرو بن سعيد الأشدق، وعمرو بن سعيد هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس وكان قد ناصر مروان بن الحكم في قتاله مع جماعة عبد الله بن الزبير

وشيعتـــه وأبـلى بلاءً حسنـاً فوعده مروان بـأن تكون الخـلافة لـه بعـد عبـد الملك بن مروان، ولكن مـروان نقض وعده، وكـان هـذا النقض سبب الفتنة بين عبد الملك وعمرو بن سعيد. واتفق أن خرج عبد الملك إلى العراق يريد محاربـة مصعب بن الزبير فدخل عمـرو بن سعيد دمشق وغلب عليها واجتمع الناس فصعد على المنبر وقال لهم: أيها النـاس إنه لم يقم أحـدٌ من قريش قبـلي على هـذا المنبر إلاّ زعم أن لـه جنـةً ونـاراً يُدخل الجنة من أطاعه ويدخل النار من عصـاه، وإني أخبركم أن الجنـة والنـار بيد الله وأنـه ليس إليّ من ذلـك شيء، غـير أن لكم عـليّ حسنَ المؤاساة والعطية.

فبلغ ذلك عبـد الملك وهو في طـريقه إلى محـاربـة ابن الـزبـير في الحجاز فدعـا وزراءه وأخبرهم بـواقع الحـال. فلما سمع وزراؤه مقـالته ذهلت عقـولهم. فقال لهم عبـد الملك: ما لكم لا تنـطقون؟ هـذا وقت الحـاجة إليكم. فقـال أفضلهم: وددت أن أكون طـائراً عـلى عـود مـن أعواد تهامة حتى تنقضـي هذه الفتن. فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه قام وأمرهم لزوم موضعهم وركب منفـرداً وأمر جمـاعة من شجعـانه أن يتبعوه متباعدين، ففعلوا.

وسار عبد الملك حتى انتهى إلى شيـخ ضعيف البدن سيىء الحال فسلّم عليـه وآنسه بحـديثه ثم شرح لـه حال الخليفـة وما نـزل بـه من النـوازل دون أن يُفهمه من هـو وسألـه رأيـه، فقـال الشيـخ: إن هـذا الخليفة خرج إلى قتال عدوه فإذا أصرّ على المضي لمحاربة ابن الزبير فهـو مخذول وإن رجع من حيث جاء وترك قصده الأول فهو منصور. فسألـه عبد الملك: يا شيخ، وهل رجوعه إلى دمشق إلاّ كسيره إلى ابن الزبـير؟ فقال الشيخ: إن الذي تراه مشكلاً عليك واضـح. وهو أن عبـد الملك الخليفة إذا قصد ابن الـزبير كـان في صورة ظـالم لأن ابن الزبـير لم يخن

عهداً له لأنه لم يعطه طاعة قط، أما إذا قصد عمرو بن سعيد كان في صورة مظلوم لأنه نكث العهد وخان الأمانة ووثب على ملك لم يكن له ولا لأبيه من قبله فعمرو متعدّ، ومن الأمثال: سمين الغصب مهزول ووالي الغدر معزول.

ثم قص عليه حكاية الحية التي اغتصبت جحر الثعلب المسمى ظالم وكيف أن ظالماً هذا غدر بصديق له، إلّا أن المكر والمكيدة انقلبا على ظالم فهلك.

فلما سمع عبد الملك رأي الشيخ وحكمته سُرّ بذلك سروراً عظيماً، وقال إني أريد مكافأتك. فقال الشيخ: إني أعطيتُ الله عهداً أن لا أقبل مِنّة من بخيل فقال عبد الملك: ومن أين علمت أني بخيل؟ فقال الشيخ: لأنك أخّرت صلتي مع القدرة عليها. فقال عبد الملك: أُقسم بالله لقد ذهلت. ثم نزع سيفه وقال له: إقبل مني هذا واحترص عليه فقيمته عشرون ألف درهم. فقال الشيخ: لا أقبل صلة ذاهل، فدعني وربي الذي لا يذهل ولا يبخل. فلما سمع عبد الملك كلام الشيخ عظم في عينه وعلم فضله في دينه وقال له: أنا عبد الملك فآرفع حوائجك إليّ. فقال الشيخ: وأنا عبد الملك، فهَلُمّ نرفع حوائجنا إلى من أنا وأنت له عبدان.

فآنطلق عبد الملك عائداً إلى دمشق.

وكان عمرو بن سعيد قد كتب أبياتاً إلى عبد الملك بن مروان يقول فيها:

يريد ابن مروان أموراً أظنّها
ستحمله مني على مركب صَعْبِ

لـيـنـقض عـهـداً كـان مـروان شـدّه
وأدرك فـيـه بـالـقـطـيعـة والـكـذب

فـقـدمـتـهُ قـبـلي وقـد كـنـت قـبـلـه
ولـولا انقيـادي كـان كـرب من الكَـرَبْ

وكـان الـذي أعـطيتُ مـروان هفـوةً
غلبت بهـا رأيـاً وخـطبـاً من الخـطب

فـإن تنفـذوا الأمـر الـذي كـان بيننـا
قفلنـا جميعـاً بـالسهـولـة والـرَّحـب

وإن يُعـطهـا عبـد العـزيـز ظُـلامـةً
فـأولى بهـا منـا ومنـه بنـو حـرب

وبعد أربعة أيام بعث عبد الملك إلى عمرو يطلب إليـه أن يأتيـه، وكـان عند عمـرو بن سعيد عبـدُ الله بن يزيـد بن معاويـة، فلما وصـل رسـول عبد الملك قـال عبد الله بن يـزيد لعمـرو بن سعيـد: أرى هـذا الـرجل قـد بعث إليك أن تـأتيـه، وأنـا أرى لـك أن لا تفعـل. فقـال عمـرو: ولِمَ؟ فقال عبـد الله: لأن تُبَيْع ابن امـرأة كعب الأحبار قـال إن عظيماً من عظماء ولد اسماعيل يرجع فيغلق أبـواب دمشق ثم يخرج منهـا فلا يلبث أن يقتل. فقال عمرو: والله لو كنتُ نائماً ما تخوّفت أن ينبّهني ابن الزرقاء (أي عبد الملك بن مروان) ولا كان ليجترىء على ذلك مني، مـع أن عثمان بن عفـان أتاني البـارحة في المنـام فألبسني قميصـه (وكـان عبـد الله بن يزيـد بن معاويـة زوج ابنة عمـرو بن سعيد)، فقـال عمرو لرسول عبد الملك: أبلغه السلام وقل له إني رائح إليـه العشية إن شـاء الله.

فلما كـانت العشية لبس عمـرو بن سعيد درعـاً حصينة بـين قبـاء

قُوهي وقميص قُوهي وتقلّد سيفاً. فلما نهض ليذهب عثر بالبساط، فقال له حُمَيد بن حُريث بن بحدل الكلبي: أما والله لئن أطعتني لم تأتِه، وقالت له امرأته الكلبية مثل ما قاله له حميد. فلم يلتفت إلى ما قالاه، ومضى في مئة رجل من مواليه. وبعث عبد الملك إلى بني مروان فاجتمعوا. ولما وصل عمرو إلى حيث كان عبد الملك أمر عبد الملك أن يمنع رجال عمرو عن الدخول وأن يحبسوا خارج الباب. فلما وصل عمرو أذن له عبد الملك بالدخول فدخل قاعة الدار وما معه إلّا وصيف، ورأى عبد الملك ورأى حوله بني مروان، فأحسّ بالشرّ، وأمر عبدالملك بالأبواب فغلّقت، ورحب عبد الملك بعمرو بن سعيد وأجلسه معه على السرير وجعل يحدثه طويلاً حتى يستأنس، ثم قال لغلام له أن يأخذ السيف من عمرو بن سعيد فأخذه وجعل عبد الملك يحدث عمرو بن سعيد، ثم قال له: يا أبا أمية! فقال عمرو: لبيك يا أمير المؤمنين. فقال عبد الملك: إني حيث خلعتَني آليتُ إن أنا ملأتُ عيني منك وأنا مالكُ لك أن أجمعك في جامعة (والجامعة هي القيد)، فقال له بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين. ثم أخرج عبد الملك جامعة من تحت فراشه وقال لغلام له: قم فأجمعه فيها. فقام الغلام فجمعه فيها. ثم اجتذبه عبد الملك اجتذابةً شديدةً اصطدم منها فمه بالسرير فكسر ثنيته. فقال عمرو: أُذكِرك الله يا أمير المؤمنين أن لا تركب ما هو أعظم من كسر عظمي. فقال عبد الملك: والله لو أعلم أنك تُبقي عليّ إن أنا أبقيتُ عليك وتَصْلُح قريش لأطلقتك، ولكن ما اجتمع رجلان قط في بلدة على مثل ما نحن عليه إلّا أخرج أحدُهما صاحبه. فلما رأى عمرو أن ثنيتَه قد اندقَّت وعرف الذي يريده عبد الملك قال له: أغدرٌ يا ابن الزرقاء! فأمر عبد الملك به فضربت عنقه. وقيل إنه ألقِي بالرأس إلى الناس وأُلقي معه الأموال فجعل الناس ينتهبون المال وتركوا الرأس وتفرقوا.

وقيل لعبد الملك بن مروان ذات يوم: عجب منك ومن عمرو بن سعيد كيف أصبت غِرّة منه حتى قتلته؟ فقال:

وأدنـيـتُـه مـني لـيـسكـن رُوعـه
لأصـول صـولـةَ حـازم مستمكِن
غـضـبـاً ومَحـمِـيـةً لـديـني إنـه
لـيس المسيءُ سبيلُه كـالمحسن

وقد رثت أخت عمرو بن سعيد أخاها بأبيات منها:

أيـا عـينُ جـودي بـالـدموع على عمرو
عَشِيّة يُبتزّ الخلافة بـالقهر
غـدرتم بعمـرو يـا بني خيط بـاطـل
وكـلكمُ يـبني البيوتَ عـلى غـدر
ومـا كـان عمـرو عـاجـزاً غـير أنـه
أتتـه المنايا بغتـةً وهـو لا يـدري
كـأن بـني مـروان إذْ يـقـتـلونـه
خشاش من الطير اجتمعن عـلى صقر
لهـا الله دنيـا تـعـقـب النـارَ أهلَها
وتهتـك مـا بـين القـرابـة من سـتر
ألا يـا لـقـومـي لـلوفـاء ولـلغـدر
وللمغلقين الباب قسراً عـلى عمرو
فـرحنـا وراح الشـامتـون عَشِيـةً
كـأن عـلى أعنـاقهم فلق الصخر

***

وفتكـة المنصـور بـأبي مسلم الخراسـاني، وأبـو مسلم هـو

عبد الرحمن بن شيرين ابن اسفنديار فارسي الأصل وكان مولده في أصفهان، وكان يكنى أبا اسحاق، وهو صاحب دولة بني العباس وكان يقال له أمير آل بيت رسول الله. كان مطيعاً لعبد الله السفاح أول خليفة عباسي، وكان مع ذلك قد استقل بخراسان منذ ١٢٩ هجرية قبل تأسيس الدولة العباسية بثلاث سنوات. ولمّا صار الأمر إلى المنصور في الخلافة بعد السفاح استخف به أبو مسلم واحتقره حتى أنه همّ بقتله سِرًّا واستخلاف أحد غيره وكان في مستطاع أبي مسلم أن يفعل ذلك وكان المنصور يخاف من أبي مسلم حتى في زمن السفاح أخيه، وقد سأل أخاه السفاح أن يأذن له بقتل أبي مسلم وكان السفاح يأبى على المنصور ذلك.

ولّما مات السفاح كان أبو مسلم في طريق عودته من الحج، فكتب إلى المنصور يعزيه في أخيه ولم يهنئه بالخلافة. فشقّ ذلك على المنصور وأرسل إليه كاتبه أبو أيوب رسالة أغلظ له القول فيها فكتب أبو مسلم يهنىء المنصور بالخلافة. وقيل إن أبا مسلم كان إذا تلقى رسالة من المنصور كان يقرأها ثم يلوي شدقيه ويرمي بها إلى كاتبه أبي نصر ويضحكان منها استهزاءً. وقيل إن أبا مسلم في إحدى المرات شتم المنصور. وخاف المنصور أن يذهب أبو مسلم إلى خراسان، وكان في ذلك الوقت في الشام، فكتب إليه المنصور كتاباً يقول له في إنه ولّاه الشام ومصر وهما خير من خراسان، وطلب إليه أن يبعث إلى مصر من يشاء وأن يقيم في الشام وبذلك يكون أقرب إلى أمير المؤمنين. فغضب أبو مسلم وقال: قد ولّاني الشام ومصر ولي ولاية خراسان، فأنا إذاً أذهب إلى خراسان واستخلف على الشام ومصر من أشاء، وكتب إلى المنصور بذلك، ورجع أبو مسلم من الشام إلى خراسان، وهو عازم على مخالفة المنصور.

وخـرج المنصـور من الأنبـار إلى المـدائن وكتب من هنـاك إلى أبي مسلم يطلب إليه المسير إليه وكـان أبو مسلم في الـزاب في طريق عـودته إلى خـراسان. فكتب إليـه أبو مسلم كتـاباً يقـول فيه: إنـه لم يبق لأمير المؤمنين عـدوٌّ إلاّ أمكنه الله منه، وقـد كنا نـروي عن ملوكِ آل ساسـان أن أخوَفَ ما يكون الوزراء إذا سكنوا الدهماء، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت، حريّـون بالسمع والطاعـة غير أنها من بعيد، حيث تقارنها السلامة، فـإن أرضاكَ ذلـك فأنـا كأحسن عبيـدك وإن أبيتَ إلاّ أن تعطي نفسـك إرادتهـا نقضتُ مـا أبـرمتُ من عهدك ضنًّـا بنفسي عن مقامات الذل والإهانة.

فلما وصل كتاب أبي مسلم هذا إلى المنصور كتب إليه كتابـاً سعى بـه المنصور أن يـزيل من ذهن أبي مسلم شكـوكـه وريبه، ثم بعث إليه بجـريـر بن يـزيـد بن جـريـر بن عبـد الله البجـلي في جمـاعـة من الأمـراء وأوصاهم أن يكلمـوا أبا مسلم بـاللّين. وقدمـوا عليـه وهـو في حلوان ولاموه فيما همّ به من منابذة أمير المؤمنين وما هـو فيه من مخـالفة ورغبـوه في الرجـوع إلى الطاعـة، فاستشـار أبـو مسلم ذوي الـرأي من أمرائه فنهـاه كلهم عن الرجـوع إلى المنصور وأشـاروا عليه بـأن يقيم في الرَّي فتكون خراسان تحت حكمـه وجنوده في طـاعته، فـإن استقام لـه الخليفة كان ذلك خيراً وإلاّ فإنه يكون في عزّ ومنعة بين جنوده.

ثم أرسـل أبـو مسلم إلى وفـد المنصـور من الأمـراء يقـول لهم: إرجعوا إلى صاحبكم فلست ألقاه. فقال له جرير البجلي ما كان أوصـاه المنصور أن يقوله له إذا أبى: إن المنصـور بريء من العباس إن شققت العصا وذهبتَ على وجهك ليدركنّـك بنفسه وليقـاتلنّك دون غـيره، ولو خضت البحر لخاضه وراءك حتى يدركـك فيقتلك أو يموت دون ذلـك.

فلما سمع أبو مسلم هذا الكلام بالتهديد انكسرت شوكته وقال للأمراء أن يمهلوه حتى يرى في الأمر.

وكان المنصور في أثناء ذلك قد كتب إلى أبي داود إبراهيم بن خالد (وكان أبو مسلم قد استخلفه على خراسان) إنه ولاه خراسان وأنه عزل أبا مسلم عنها. فعند ذلك كتب أبو داود إلى أبي مسلم كتاباً يقول فيه إنه لا يليق بنا منابذة خلفاء أهل بيت رسول الله فآرجع إلى إمامك سامعاً مطيعاً. فآزداد أبو مسلم انكساراً، وبعث برسول خاص إلى المنصور فأكرم المنصور الرسول ووعده بولاية العراق إن هو ردّ أبا مسلم عن منابذته. فلما عاد الرسول إلى أبي مسلم قال له إني رأيتهم معظمين لك ويعرفون قدرك. ففكر أبو مسلم في الأمر ثم عزم على الذهاب إلى الخليفة واستشار أمراءَه فنهاه أحدهم يقال له نَيْزَك بعدم الذهاب وتمثل له بقول الشاعر:

ما للرجال مع القضاء محالة
ذهب القضاء بحيلة الأقوام

وقال له: احفظ عني واحدة، إذا دخلتَ عليه فآقتله ثم بايع من شئتَ بالخلافة فإن الناس لا يخالفونك.

ثم كتب أبو مسلم كتاباً يعلمه فيه بأنه قادم إليه. فأرسل المنصور رسولاً يتلقى أبا مسلم في الطريق ويخبره باشتياق الخليفة إليه، فلما سمع أبو مسلم بذلك سُرّ وانشرح صدره. ولما قرب أبو مسلم من المدائن حيث كان المنصور، أمر المنصور القواد والأمراء أن يتلقوه بالبِشر والترحاب ويسيروا معه حتى يوصلوه إلى دار الخليفة. ولما وصل أبو مسلم تلقاه المنصور بالكرامة والتعظيم حتى سكن روعه، ثم إنه أمر بإدخاله الحمام وإراحته تلك الليلة، وأن يأتيه في الغد. وجاء الناس

يسلمون عليه. وأعدَّ المنصور في أثناء ذلك رجالاً يقتلون أبا مسلم عند حضوره دار الخلافة.

ولمّا كان من الغد جاء أبو مسلم وسلَّم على الخليفة وجلس وآنسه الخليفة ثم صفق بيديه فخرج الرجال وضربوه بالسيوف فقتلوه ثم لفوه بعباءة وألقوا به في نهر دجلة، ويقال إن المنصور تمثل عندئذ يقول البارقي:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى
كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

* * *

الحمامة في الشعر العربي

الحمام على أنواع، وهو على العموم قسمان: أهلي أو داجن وبَرّي، وكل من هذين القسمين له ضروب مختلفة. وقالوا إن الحمام هو الحمام الداجن واليمام هو الحمام البري، واختلفوا في ذلك. والحمام جمع حمامة، وقالوا عن الحمامة إنها تغني وتنوح وتهتف وتبكي وتسجع وتترنم وليس كل حمامة تفعل ذلك، والعرب لم يذكروا مَن من الحمام يفعل كل ذلك أو بعضه، ونحن نعلم أن الحمام الداجن لا يغني ولا يبكي ولا ينوح ولا يهتف، وقد يكون للفاختة صوت يشبه الأنين ولكنه ليس الذي ذكره الشعراء. إذاً ما هو هذا الحمام الذي يفعل ذلك إذا صوّت؟ وبحثت عن ذلك فلم أهتد إلى جواب هذا السؤال.

وكنت ذات يوم أقرأ قطعة أدبية في اللغة الإنكليزية فمرّ بي ذكر حمامة تغني ووجدت تعليقاً على هذا الكلام جاء فيه أن هذه الحمامة المغنية ذكرت في نشيد الإنشاد المنسوب إلى النبي سليمان في العهد القديم. ثم إن البحث قادني إلى أن الحمام لا يغني ولا يهتف ولا يبكي وأن الحمام الذي ينوح هو الحمام الطرغلي من الحمام البري، والواحدة طُرغلة، ولعلّ هذا الحمام هو حمام الأيك أو حمام الأراك ويقال لهذا الحمام في الإنكليزية Turtle dove وبعض العرب يقول له القُمري.

فالعرب كانوا يعرفون هذا الحمام وكانوا يسمعون صوته الحزين

فقالوا عنه إنه ينوح، ثم قالوا إنه يبكي أو إنه يهتف بشكواه. ولا بد أن العرب خلطوا بين أنواع الحمام وأنواع الطير فقالوا إن القطا من الحمام وخلطوا لذلك بين الحمام وبعض الصوادح أو المغرّدات من الطير، فقالوا إن الحمام يغني ويسجع ويترنّم.

وعلى كل حال فإن العرب ـ كما قلنا ـ نسبوا إلى الحمام الغناء والنواح والهتاف والبكاء، ومن جملة ما ذكروا في هذه المناسبة المطوّقة والورقاء والقمرية. والدليل على أن العرب خلطوا بين حمام داجن وحمام بري قول النابغة:

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت
إلى حمام شِراع وارد الثَّمدِ

وقالوا إن الحمامة إذا ناحت أو بكت أو سجعت فإنها تشتاق إلى إلْفها أو إلى الهديل وهو ذكر الحمام.

وقال العرب في الحمام شعراً كثيراً لا يتسع المجال لذكره أو ذكر معظمه وقد نكتفي بذكر مختارات مناسبة، منها أبيات من مقصورة لأبي صفوان الأسدي:

وقد شاقني نوح قمرية ... طروبُ العشاء هتوف الضُّحى
من الوُرق نواحة باكرت ... عَسيب أشاء بوادي الغضى
فغنت عليه بلحن لها ... يهيّج للصب ما قد مضى
مُطوّقة كسيت زينة ... بدعوة نوحٍ لها إذ دَعا
فلم أر باكيةً مثلها ... تبكي ودمعتها لا تُرى
أضلّت فُريخاً فطافت له ... وقد علِقته حبالُ الردى
فلما بدا اليأس منه بكت ... عليه وماذا يَرُدّ البكا
وقد صاده ضَرِم مُلْحَمٌ ... خَفُوقُ الجناح حثيث النجا
حديد المخالب عاري الوظيـ ... ـيف ضارٍ من الوُرِق فيه فنا

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنشدني أعرابي:

ألا قاتل الله الحمامة غدوة

على الغصن ماذا هيجت حين غنتِ

تغنت بصوتٍ أعجمي فهيجت

من الوجد ما كانت ضلوعي أجنّت

فلو قطرت عين امرىء من صبابة

دماً قطرت عيني دماً وأبلّت

فما سكتت حتى أويت لصوتها

وقلت أرى هذه الحمامة جُنّت

ولي زفرات لو يدمن قتلنني

بشوقٍ إلى هاتي التي قد تولّت

إذا قلت، هذي زفرة اليوم قد مضت

فمن لي بأخرى في غد قد أظلّت

فيا مُنشِر الموتى أعِنّي على التي

بها نَهلت نفسي سَقاماً وعَلّت

لقد بخلت حتى لو آني سألتها

قذى العين من سافي التراب لضَنّت

فقلت ارحلا يا صاحبيّ فليتني

أرى كلّ نفس أعطيت ما تمنت

حلفتُ لها بالله ما أم واحد

إذ ذكرته آخر الليل أنّت

ولا وجد أعرابية قذفت بها

صروف النوى من حيث لم تك ظنت

إذا ذكرت ماءَ العذيب وطيبه

وبرد حصاه آخر الليل حنّت

بـأكـثر مــني لــوعــةً غــير أنــني
أُطــامــن أحــشــائي عــلى مــا أكـنّـت

ويقول حُميد بن ثور:

ومــا هــاج هــذا الشــوق إلاّ حمــامــة
دعــت ســاق حُــرّ تــرحــةً وتــرنّمــا
إذا شئــتُ غَنــتــني بـأجــزاع بيشـة
أو الـنـخــل مــن تـثـليـث أو بـيَـلَمْـلما
مـطوّقةٌ خـطبــاء تــســجــع كــلما
دنــا الصيف وانجال الــربيع فــأنجما
مُحَــلاّة طــوق لم يــكــن مــن تميــمــة
ولا ضربِ صــوّاغ بــكــفّــيــه درهمــا
تـغنـت عــلى غصــن عشــاءً فــلم تــدع
لــنــائحــة في شــجــوهــا متــلوّمــا
إذا حــركتــه الــريــح أو مــال ميــلةً
تــغــنــت عــليــه مــائــلاً ومــقــوَّمــا
عَــجبــت لهــا أنى يــكــون غــنــاؤهــا
فــصيــحــاً ولم تفــغــر بمــنــطقــهــا فــما
فــلم أر مــثــلي شــاقه صــوت مــثــلهــا
ولا عــربــيــاً شــاقه صــوتُ أعــجــما

ويقول أبو الأسود الدؤلي:

وســاجــع في فــروع الأيــك هــيــجني
لم أدرِ لِمْ نــاح ممــا بي ولمْ سَــجَــعــا
أبــاكــيــاً إلْــفَــه مــن بــعــد فــرقــتــه
أم جــازعــاً للنــوى مِن قبــل أن يقعــا

يدعو حمامته والطير هاجعة

فما هَجَعتُ له ليلي وما هجعا

شكا النوى فبكى خوف الأسى فرمى

بين الجوانح من أوجاعه وجعا

كأنه راهب في رأس صومعة

يتلو الزبور ونجم الصبح قد طلعا

ويقول جهم بن خلف:

تذكرت ليلى إذ رميتُ حمامة ... وأنّى بليلى والفؤاد قريح

يمانيةٌ أمست بنجران دارها ... وأنت عراقي هواك نَزوح

فإن سجعت ورقاء في رونق الضحى ... على الأيك حمّاء العِلاط صدوح

مطوّقة طوقاً من الريش لا ترى ... لنائحةٍ طوقاً سواه يبوح

وأسعدنها بالنوح من كل جانب ... صواحب في أعلا الأراك تصيح

فها أنا صبٌّ بالعراق مروّع ... بصوت يُعِل القلب وهو صحيح

وكِدت من الشوق المبرح إذ بكت ... بأسرار ليلى في الفؤاد أبوح

ويقول شَقيق بن سُليك:

ولم أبكِ حتى هيجتني حمامة

تغني الحمامَ الورق فاستخرجت وجدي

وقد هيجت مني حمامة أيكة

من الوجد شوقاً كنت أكتمه وحدي

تنادي هَديلاً فوق أخضر ناعم

لوقت ربيع باكر في ثرى جَعْد

فقلت تعالي نبك من ذكر ما خلا

ونذكر منه ما نُسِرّ وما نبدي

فإن تُسعديني نبكِ دمعتنا معاً
وإلا فإني سوف أسفحها وحدي

ويقول محمد بن يزيد بن مسلمة:

أشاقك برق أم شجتك حمامة
لها فوق أطراف الأراك رنيم

أطاف إليها الهَمَّ فقدانُ آلفٍ
وليل يَسُدّ الخافقين بهيم

تداعت على ساق بليل فرجَّعت
وبالوجد منها مُقعِد ومقيم

تميل إذا ما الغصن صارت متونه
كما مال من رِي المدام نديم

فباتت تناديه وأنَّى يُجيبها
مَنوطٌ بأطراف الجناح رميم

أُتيح له رامٍ بصفراء نبعةٍ
على عَجْسها ماضي الشباة صميم

رماهُ فأصماهُ فطارت ولم تطِر
فظلّ لها ظل عليه تحوم

وظلّت بأجراع الغوي نهارها
مولّهةً كلَّ المرام تروم

قرينة إلْف لم تفارقه عن قلىً
غداةَ غد يومٌ عليه مَشوم

وراحت بهمّ لو تضمّن مثلَه
حشا آدمي ما استطاع يريم

وللبرق إيماض وللدمع واكف
وللريح من نحو العراق نسيم

فطوراً أشيم البرق أين مُصابُه
وطوراً إلى إعوال تلك أهيم

غناء يروع المنصتين وتارة
بكاءٌ كما يبكي الحميمَ حميم

ويقول عثمان بن إبراهيم بن النضر:

ألا يا حمامَ الأَيك مالك باكياً
وغُصنُك نَضْر والجناب مَريع

تغنّ ولا تنشج فإلفك حاضر
قريب وإلفي غائب وشسُوع

بكيتَ بلا دمع وترفضّ مقلتي
شآبيب منها في المصيف ربيع

وقلبك خلو من تباريح لوعتي
وقلبي بلوعات الفراق صريع

ورأيت في حماسة ابن الشجري قول محمد بن خلف:

أبكيتَ أن غنّت حمامة أيكة
ورقاءُ تهتف في الغصون وتسجع

مألوفة الألحان مِطراب الضحى
تبكي بشجوٍ دائم وتوجّع

ما تستفيق من البكاء فنومها
يُجوي الحزين وعينها لا تدمع

عجباً لمبكى عينها وجمودها
ولِلوعةٍ في قلبها لا تُقلِع

ويشبه ذلك قول الصّمّة القشيري:

أإن سَجَعت في بطن وادٍ حمامةٌ
تُجاوب أخرى ماء عينيك دافقُ

كـأنـك لم تـسـمـع بـكـاء حمـامـة
بـليـل ولم يحـزنـك إلـفٌ مـفـارق
بـلى، فـأفق من ذكـر لـيـلى فـإنمـا
أخـو الصـبر مَنْ كفّ الهـوى وهـو تـائق

ويقول أبو جعفر المهلّبي:

لقـد هيَّـج الشـوق القـديـم حمـامـة
مُـطوّقـة ورقـاء بـان قـريـنهـا
تـغـنَّـت بـصـوتٍ أعـجـميّ فـهيَّـجت
وسـاوِسَ نـفس مـا تقضت شجـونها
تـنـوح بمـا تلقـاه من فـقـد إلـفـهـا
وفي الـقـلب مـني لـوعـة لا أبـيـنهـا
وتُسعِـدهـا ورقُ تـعـين عـلى البـكـا
ولـيس لنفسي في الهـوى من يُعـينهـا

ولجهم بن خلف المذكور سابقاً:

مُـطوّقـة كـسـاهـا الـلـه	طـوقـاً لـم يـكـن ذهبـا
جَمـود العين مبكـاهـا	يـزيـد أخـا الهوى نصبا
مُـفـجَّـعـة بكت شجـواً	فـبِتُّ بـشجـوهـا وصِـبـا
عـلى غـصـن تمـيـل بـه	جَـنـوبٌ مـرة وصـبـا
تَـرِنّ عـليـه إمّـا مال	مـن شـوق أو انـتـصـبـا
ومـا فـغـرت فـماً وبـكـت	بـلا دمـع لها انـسـكـبـا

ويقول أحمد بن عبد ربه:

ونـائـحٍ في غـصـون السـدر أرقـني
ومـا عَـنِيـتُ بشيء ظـل يعـنـيـه

مُطوقٍ بعقودٍ ما تُزايله
حتى تزايله إحدى تراقيه
قد بات يبكي لشجو ما دَرَيت به
وبت أبكي لشجو ليس يَدْريه

ويقال للرجل إذا ألزمك شيئاً لا فكاك منه: لقد طوقتني طوقَ الحمامة.

ويقول علي بن مرشِد بن منقِذ:

يا طائراً لعبت أيدي الفراق به
مثلي فأصبح ذا همّ وذا حَزَنِ
داني الأسى نازحَ الأوطان مغترباً
عن الأحبة مصفوداً عن الوطن
بلا نديم ولا جارٍ يُسَرّ به
ولا حميم ولا دارٍ ولا سكن
لكن نطقتَ فزال الهمّ عنكَ ولي
همّ يقلقِل أحشائي ويُخرسني
وكلّ من باح بالشكوى استراح ومَن
أخفى الهوى بث عنه شاهد البدن
أرّقت عيني بنوحٍ لستُ أفهمه
مع ما بقلبيَ من وجدٍ يؤرقني
دماً بكيت ولي دمع غواربه
إذا ارتمت منه لم تنشق بالسفن

ويقول عبد السلام بن المفرّج في الحمامة:

أفنى اصطباري صدوحٌ غاب واحدها
فكم لها في فروع الأيك ألحان

باتت تنوح على غصن تميل به
ريحُ الصَّبا وكأن الغصنَ نشوان

حزينة الصوت تشجي قلب سامعها
قريحةٌ قلبها المفجوع حنّان

تبكي بغير دموع والبكا خُلق
بالدمع لي ولذاك الوجد ألوان

والعرب يقولون إن الحمامة كانت دليل نوح عليه السلام ورائده. التي وهبها الله الطوق زينة لها بدعاء نوح لأنها لما رجعت إلى نوح رجعت ومعها عيدان من شجر العنب وفي رجلها طين وحمأة فكوفئت على حسن دلالتها وطاعتها بالطوق وعلى عيدان الكرم والطين بالخضاب لرجلها.

وفي الطوق يقول أمية بن أبي الصلت:

وأُرْسِلت الحمامة بعد سبع
تدل على المهالك لا تهاب

فعادت بعد ما ركضت بشيء
من الأمواه والطين اللُّباب

فلما فتّشوا الآيات صاغوا
لها طوقاً كما عُقِد السحاب

إذا ماتت تورّثه بنيها
وإن قتِلت فليس له آستلاب

وقال جهم بن خلف يشير إلى دعاء نوح:

قد شاقني صوت قُمرِيّة
طروب الغناء هتوف الضحى

مطوقة كسِيت زينة
كدعوة مرسلها إذا ما دعا

وقال الباهلي في قولهم: طوّقته طوقَ الحمامة:

نهاني أن أطيل الشعر قصدي إلى المعنى وعلمي بالصواب
وأبعثهنّ أربعة وخمساً بألفاظ مثقفة عِذاب
وهُنّ إذا وسمتُ بهنَّ قوماً كأطواق الحمامة في الرقاب

وقال المتنبي:

أقامت في الرقاب له أيادٍ
هي الأطواق والناس الحمام

وقال الفرزدق:

ومن يك خائفاً لأذاة شعري
فقد أَمِن الهجاءَ بنو حُرام
هُمُ منعوا سفينتهم وخافوا
قلائدَ مثل أطواق الحمام

* * *

طول الليل

الليل والنهار بعد الحياة والموت هما أكثر مساساً بالحياة على الأرض. واختلفوا في أي منهما كان السابق عند خلق الأرض أو الكون، وفي الأساطير اليونانية القديمة أن الكون كان فراغاً لا حدّ له ثم تولد من هذا الفراغ الليل وإله يقال له Erebus ومن هذين الاثنين تولد النهار وهو Phanes. وفي رواية أخرى من هذه الأساطير أن الفراغ كان مغلّفاً بالليل كقشرة البيضة، ثم ظهر النهار من داخل الفراغ أو من داخل البيضة.

وفي القرآن الكريم: ﴿وآيةٌ لهم الليلُ نسلَخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمسُ تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمرَ قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمسُ ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكُلٌّ في فلك يسبحون[1]﴾. ليس في هذه الآيات الكريمة ما يدل على أن الليل كان قبل النهار في الخلقة.

ويقول الشيخ شرف الدين أحمد التيفاشي: «وليس في هذه الأقوال بيان في أن الليل قبل النهار في الوجود أو أن النهار قبل الليل وهو محط السؤال. وأنا أقول إن الليل والنهار لا يخلو إما أن نعتبر

(١) سورة يّس الآيات ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٠.

وجودهما بالإضافة إلينا أو بالإضافة إلى العالم نفسه، فإن كانا بالإضافة إلينا كانا في منزلة المضاف في المنطق كالأب والابن فإذا كانا كذلك لم يكن أحدهما متقدماً على الآخر فإنا لا نعرف الليل إلا وقبله نهار ولا النهار إلّا وقبله ليل كما لا يعرف الأب من حيث هو أب إلا ومعه الابن ولا الابن إلا ومعه الأب».

وفي كتاب فردوس السعة للقيس بن المفرح الطبيب «أن الله خلق الظلمة أولاً ومن بعدها النور لأن الفاعل الحكيم شأنه أن يدرج مفعولاته من النقصان إلى الكمال ومن ذلك تصييره الجنس الآدمي الذي هو علة المخلوقات آخر المخلوقات فالواجب أن يكون النور آخراً لأنه أشرف من الظلمة».

وأما قوله تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ فقد فسرها المفسرون بأن الله جلّت قدرته ينزع عن الليل الضوء فيظهر سواده، فإذا هم مظلمون. فالمفهوم منه أن الظلمة هي الأصل.

والليل والنهار يقال لهما عند العرب الجديدان والملوان والأجدّان والقرنان والعصران والبردان والأبردان والخافقان والدائران والحاذقان والخيطان وغير ذلك. وسمّى العرب الليل أسماء عديدة. فهو الليل والدُّجَى والدَّجن والدُّجْية والكافر، ولم يسموا النهار بأسماء عديدة كما سموا الليل.

والعرب متفقون في كلامهم على تقديم الليل على النهار، وعلى هذا فإنهم يؤرخون بالليل لا بالنهار فيقولون لخمسٍ بقين من شعبان مثلاً أو لخمس عشرة ليلة من رمضان. وفي ذلك يقول أبو منصور صرّار:

عُلّقْتُهَا سوداء مصقولة ... سواد عيني صفة لها
ما انكشف البدر على تمّه ... ونوره إلا ليحكيها

لأجـلهـا الأزمـان أوقـاتهـا مـؤرَّخـات بـليـالـيـهـا

وشبّه العرب الليل بالزّنجي وبالجلباب وبموج البحر وبالغراب والمسوح وبالساج وبالرُّوَيْزي وبالطَّيْلَسان. وآشتكى العرب من الليل ظلامه وطوله. ويقول ذو الرمة في سواد الليل:

وليـل كجلبـاب العـروس ادَّرعـتـه
بـأربعـة والشخص في العـين واحـد

والمشهور في ذلك قول امرىء القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدولـه علـيّ بـأنـواع الهمـوم ليبتـلي

ويقول القاضي التنوخي:

ولـيـلةٍ كـأنها يـوم أمـل
ظـلامهـا كـالـدهـر مـا فيـه خـلل
كـأنمـا الإصـبـاح فـيـهـا بـاطـل
أزهـقـه الله بـحـقّ فـبـطل
سـاعـاتهـا أطـول من يـوم الـنـوى
ولـيـلة الهـجـر وسـاعـات الـعَـذَل
مُـؤْصَـدة عـلى الـورى أبـوابهـا
كـالـنـار لا يخـرج منهـا مَـن دخـل

وقالوا عن ظلام الليل أنه كالساج، كقول ابن مَحكان السعدي:

ولـيـل يـقـول الـنـاس في ظـلماتـه
سـواءٌ صحيحـات العيـون وعـورُهـا
كـأنّ لـنـا منـه بـيـوتـاً حصيـنـةً
مُسـوحـاً أعـاليهـا وسـاجـاً ستـورُهـا

وقال تميم بن المعز:

وانظر إلى الليل كالزنجيّ منهزماً والصبح في إثره يعدو بأشهبه

وقال مسكين الدارمي :

ومـطويّ أثنـاء اللسـان بـعـثـتـه
تخـال الـنـعـاسَ في مـفـاصـله خمـرا
بـأرض كساهـا الليـل ثـوبـاً كـأنمـا
كسـاهـا مُسـوحـاً أو طيـالسـةً خُضْرا

ويقول علي بن محمد الفهمي في سواد الليل :

والـلـيـل في ثـوب كـأنّ أديمـه
نـفـضـت عـلـيـه سـوادَهـن جـفـون
مُـسـوّدة أقـطـاره فـكـأنـه
مَـطـل تـلاه نـائـلٌ مـيـمـون
والأرض شـوهـاء الـعِـراص كـأنها
صَـدّ إلى يـوم الـنـوى مـقـرون
والـلـيـل مـكـبـوب عـلـيـهـا مُـطرِق
مـا يـسـتـفـيـق كـأنـه محـزون

ويقول البحتري في وصف الليل بالغراب لسواده :

والليـل في بُـرد الغـراب كـأنـه هـو في حـلوكتـه وإن لِمَ يَنْعـب
والعِيس تفصل من دجاه كما آنجلى صِبغ الشباب عن القذال الأشْيَب

ويقول عليّ بن الجهم :

كـم قـد تجـهّـمـني السُّرَى وأزالـني
لـيـلٌ يـنـوء بـصـدره مـتـطاولُ
وهـزتُ أعنـاق المـطيّ أسُـومـهـا
قصـداً ويحجـبهـا الـسـواد الشـامـل
حـتى تـدلّى الـلـيـل ثـانيَ عِـطفـه
وكـأنّ آخِـرَه خِـضـاب نـاصـل

وخَـرجـتُ مـن أعـجـازه فـكـأنما
يهـتز في بُـرديّ رمـح ذابـل
ورأيـت أغـبـاشَ الـدجـى وكـأنها
حِـزق النعـام ذُعِـرن فـهي جـوافـل

ويقول الشمّاخ:

وليـل كلون الساج أسود مُـظلِم قليـل الوغى داج بلون الأَرَنْـدَج

والأرندج الجلود السود.

ويقول العطوي في سواد الليل:

ورُبّ ليـلٍ بـاتت عسـاكـره تحـمـل في الجـو منـه رايـاتِ
في كـل أُفـقٍ مـن الـسـماءِ لـه كمـين جيش مـن الـدُّجُنّـاتِ

ويقول ابن المعتز في وصف الليل بالشَّعر لسواده:

سـقتـنيَ في ليـلٍ شبيـهٍ بشعـرهـا
شـبيـهـة خَـدِّيهـا بـغـير رقـيـب
فـأمسيـتُ في ليـلين للشعـر والـدُّجى
وصـبحـين مـن كـأس ووجـه حبيـب

ويقول عبد الله بن محمد المعروف بابن البغدادي:

أَزْرَى بـلـبّـك شـادن ذو قَـرْطـق
يَـسقـي العُـقـارَ ويـعـقـد الـزُّنّـارا
ولـقـد شكـوت إليـه بعض صبـابتي
فـحَـنـا وقـال أرى بـقـلـبـك نـارا
في لـيـلة حـلفـت علـيّ بـطيـبـهـا
لأُقـاطِـعَـنّـك إن شربـت نهارا
ولأسـتُـرنّ البـدرَ عـنـكَ بـظلمتي
فـيـكـونُ في لـيـل الـتِّـمام سِرارا

وللمعري في الليل بأنه عروس من الزنج قوله:

ليلتي هذه عروس من الزنج عليـ ـهـا قـلائـد مـن جُمـان

والجمان أسود.

أمـا طول الليـل ففيه أشعـار طويلة، وجعلوا لـطول الليـل عللاً وأسباباً، فقد يطول الليل في صميم الشتاء بعامل طبيعي، وهـذه العلة قليل ذكرهـا في الأشعار، وقـد يطول الليـل على العـاشق، وقد يـطول الليل على المهموم وقد يطول على صـاحب الشأن في تـدبير أموره، ولـمّا كان العرب يوقنون بسير النجوم فقد كان عنـدهم أن طول الليـل يكون بسبب بطء حركة النجوم أو حتى بتوقفها عن السير كما لـو أنها مشدودة بأمراس، والمشهور في ذلك قول امرىء القيس:

وليـلٍ كمـوجِ البحـر أرخى سـدولـه
عـليّ بـأنـواع الهـمـوم لـيـبـتـلي
فـقـلت لـه لمـا تمـطى بـصـلبـه
وأردف أعـجـازاً ونـاء بـكـلكـل
فيـا لـك من ليـل كـأن نـجـومـه
بـكـل مُـغـار الفتل شُـدّت بيذبل
كـأن الـثريـا علقـت في مـصـامـهـا
بـأمـراس كـتـانٍ إلى صُـمّ جـنـدل

وأوضح من ذلك في المعنى نفسه قول المهلهل:

ألـيـلتـنـا بـذي حُـسـم أنيـري
إذا أنـتِ انـقـضـيـت فـلا تحـوري
فـإن يـك بـالـذنـائب طـال ليـلي
فـقـد أبـكي عـلى الـليـل الـقصـير

كـأنّ كـواكـب الجـوزاء عُـوذ

مـعـطّفـةٌ عـلى رُبَـع كـسـير

كـأنّ الجـدْي في مـثـنـاةِ ربـق

أسـيرٌ أو بمـنـزلـة الأسـير

كـأنّ الـنـجـم إذ ولّى سُـحـيـراً

فـصـالُ جُـلْنَ في يـوم مـطير

كـواكـبـهـا زواحـف لاغـبـات

كـأنّ سـماءَهـا بـيـدي مـديـر

كـواكـب لـيـلة طـالـت وغـمّـت

فـهـذا الـصـبـح راغـمـةً فـغـوري

ويقول النابغة الذبياني:

كـليني لِهَـمّ يـا أُمـيـمـة نـاصـبِ

ولـيـل أقـاسيـه بـطيء الـكـواكـب

تـطاول حـتى قُـلتُ لـيس بمـنـقض

وليس الـذي يـرعى النجـوم بـآيـب

ونذكر في ذلك شعراً من غير الشعر الجاهلي كقول علي بن محمد الكوفي:

مـتى أرتجي يـومـاً شفـاءً من الـضنـا

إذا كـان جـانـيـه عـليّ طبـيـبـي

ولي عـائـدات ضـفْتُهـنّ فَجِئْنَ في

لـبـاسِ سـوادٍ في الـظلام قـشـيـب

نجـوم أراعـي طـولَ ليـلي بـروجَـهـا

وهـنّ لـبـعـد الـسـير ذات لـغـوب

خـوافـق في جُـنـح الـظلام كـأنها

قـلوب مُـعَـنّـاة بـطول وجـيـب

تـرى حـوتهـا في الشرق ذاتَ سِباحـة
وعـقـربَهـا في الـغـرب ذات دبـيـب
إذا مـا هـوى الإكليـل منهـا حَسِبتـه
تهـدُّلَ غـصـن في الـريـاض رطـيـب
كـأنّ الـتي حـول المـجـرّة أوردت
لِـتـكْـرعَ في مـاءٍ هـنـاك صبـيـب
كـأنّ رسولَ الصبـح يخلُط في الـدجى
شـجـاعـةَ مـقـدام بـجُبـن هَـيـوب
كـأنّ سـوادَ الليـل في ضـوء صبحـه
سـواد شَبـاب في بـيـاض مـشـيـب

ويقول ابن طبَاطَبا:

وتنـوفـةٌ مـدّ الضمـير قـطعتُها	والليـل فـوق إكـامهـا يـتربـع
ليـلٌ يمُـدّ دجـاه دون صبـاحـه	آمالَ ذي الحِرص الـذي لا يقنع
بـانت كـواكبـهُ تحـوط بقـاءَه	في كـلّ أفقٍ منـه نجم يـلمـع
زُهْـر تثـير عـلى الصباح طلائعـاً	حـول السـماء فهنّ حَسْرى ظُلَّع
متـيـقـظـات في المـسـيرِ كـأنها	بـاتت تناجَى بـالـذي يُتـوقَّـع
وبـدت كواكبـه حيـارى فيـه لا	تـدري بوشـل ريالها مـا تصنـع
متهـادلات الـنـور في آفـاقهـا	مستعـبرات في الدجى تسترجـع
وكـواكب الجـوزاء تبسط بـاعهـا	لـتعـانـق الـظلماء وهي تـودع
وكـأنما الشعـرى العَبور وراءَهـا	ثـكـلى لهـا دمـع غزيـر يهمـع
وبنـات نعش قد بـرزنَ حواسـراً	قـدامـهـا أخـواتهـن الأربـع
عَبْرى هتكن قناعهن على الدجى	جـزعـاً وآلت بعـد لا تتقنـع

والصورة في هذه الأبيات ليست من الوضوح مثل الصورة في أبيات امرىء القيس والنابغة والمهلهل.

ويقول حُنْدُج بن حُنْدُج:

في ليل صُولٍ تناهى العرض والطول
كأنما ليله بالليلِ موصول
لا فارق الصبح كفي إن ظفِرتُ به
وإنْ بدت غُرَّة منه وتحجيل
لِساهِر طال في صُولٍ تململه
كأنه حيّة بالسوط مقتول
متى أرى الصبح قد لاحت مخايلُه
والليل قد مُزّقت عنه السرابيل
ليلٌ تحيّر ما ينحط في جهة
كأنه فوق متن الأرض مشكول
نجومهُ رُكّد ليست بزائلةٍ
كأنما هنّ في الجو القناديل

* * *

وقد ألمّ الشعراء بقول حُنْدج:

كأنما ليله بالليل موصول

فقال عدي بن الرِقاع:

وكأنّ ليلي حين تغرب شمسه ... بسواد آخر مثله موصول

وقال بشار:

خليلي ما بال الدُّجَى لا تزحزح
وما لعمود الصبح لا يتوضّح
أضلّ النهارُ المستنير طريقَه
أم الدهر ليل كله ليس يبرح
وطال عليّ الليل حتى كأنه
بليلين موصول فلا يتزحزح

ويقول سويد بن أبي كاهل (وهو جاهلي) في قريب من ذلك:

وإذا ما قلت ليل قد مضى
عطف الأول منه فَرَجَعْ

يسحب الليل نجوماً ظُلّعا
فيواليها بطيئاتُ التبَعْ

ويُزجّيها على إبطائها
مُغْرَب اللون إذا الليل انقشع

وحدّث محمد بن عبد الوهاب الثقفي قال دخلنا على خلف الأحمر في مرضه الذي مات فيه فقلنا له: كيف تجدك يا أبا محرِز فأنشأ يقول:

يا أيها الليلُ الطويلُ ذَنَبُه كأنّ دَيْناً لك عندي تطلبه
أما لهذا الليل صبحٌ يقرّبه

فهو يشكو مرضه فهو لا ينام.

وسعيد بن حميد يشكو من عشقه حيث يقول:

يا ليلُ بل يا أبدُ أنائمٌ عنك غَدُ
يا ليلُ لو تلقى الذي ألقى بها أو تجد
قَصّر من طولك أو ضُعّف منك الجلَد
أشكو إلى ظالمةٍ تشكو الذي لا تجد
وقفٌ عليها ناظري وقف عليها السُّهُد

ويقول خالد الكاتب:

رقدتَ ولم ترثِ للساهر وليلُ المحبّ بلا آخر
ولم تَدْرِ بعد ذهاب الرُّقا دِ ما صنع الدمع في ناظري

ويقول علي بن الخليل الكوفي:

يقولون طال الليل والليل لم يطل
ولكنّ مَن يهوَى من الهم يَسْهَرُ

فكم ليلة طالت عليّ بهجركم

وأخرى يلاقيها بوصل فتقصرُ

وهذا مثل قول علي بن بسام في السبب في طول الليل وقصره:

لا أظلم الليلَ ولا أَدَّعي

أن نجومَ الليل ليست تغور

ليلي كما شاءت فإن لم تجُد

طال وإن جادت فليلي قصير

ومن أبلغ ما قيل في طول الليل بسبب العشق قول العباس بن الأحنف:

أيُّها الراقدون حولي أعينو

ني على الليل حِسبة واتِّجارا

حدّثوني عن النهار حديثاً

أو صفُوه فقد نَسِيتُ النهارا

ويقول بشار في ليل العاشق:

لِخَدَّيْكَ مِن كفَّيك في كلّ ليلة

إلى أن تَرى وجه الصباح وساد

تبيتُ تُراعي الليلَ ترجو نفاده

وليس لِلَيل العاشقين نفاد

ولعلي بن الخليل قوله:

لا أظلم الليلَ ولا أدَّعِي

أن نجومَ الليل ليست تزولْ

ليلي كما شاءت قصير إذا

جادت وإن ضنت فليلي طويل

ولأبي دَهْبَل الجُمَحي في طول الليل بسبب العشق:

تطاول هذا الليل ما يتبلّج
وأعيت غواشي عبرتي ما تَفَرَّج

وبتّ كئيباً ما أنام كأنّما
خِلال دموعي جمرة تتوهج

فطوراً أمنّي النفس من عمرةَ المنى
وطوراً إذا ما لجّ بي الحزن أنشَجُ

وله أيضاً:

ولقد قلت إذ تطاول سُقمي
وتقلبت ليلتي في فنون

ليت شعري أمِن هوًى طار نومي
أم براني الباري قصير الجفون

وفي قول مؤيد الدين الطغرائي شبه بقول علي بن الخليل، فالطغرائي يقول:

ليلي وليلى نفى نومي اختلافهما
حتى لقد صيّراني في الهوى مثلا

يجود بالطول ليلي كلما بخلت
بالوصل ليلى وإن جادت به بخلا

ويقول الوليد بن يزيد:

لا أسأل الله تغييراً لما صنعت
سُعدى وإن أسهرت عينيّ عيناها

فالليل أطول شيء حين أفقدها
والليل أقصر شيء حين ألقاها

وقالت أم الهيثم:

تجافى مضجعي ونبا رقادي
وليلي ما يَقِرّ من السهاد
أراقب في السماء بنات نعشٍ
ولو أستطيع كنتُ لهنّ حادي

وقال الناشيء:

سل الليلَ عني ما لقيتُ وما لَقَى
يخبركم أني بحبكم أشقى

ويقول ابن طباطبا عن بطء سير الكواكب:

كأن نجوم الليل سارت نهارها
وعادت عِشاءً وهي أنضاء أسفار
فخيّمن حتى يستريح ركابها
فلا فلك جارٍ ولا كوكب ساري

ويقول ابن دُريد:

لقد أَلِفت دهم النجوم رِعايتي
فإن غِبت عنها فهي عني تسائِلُ
يقابل بالتسليم من هو طالع
ويُومىء بالتوديع من هو آفل

ويقول جحظة البرمكي:

وليلي في كواكبه حِران
فليس لطوله منه انقضاء
عدِمتُ محاسن الإصباح فيه
كأن الليل جود أو وفاء

وهـذه الأقوال في طـول الليل تعـطي لنا العلـة في ذلـك، فهـو يـطول لـبـطء النجـوم أو للسهـر من القلق والهم أو بسبب الأرق من العشق. ويظهر أن الشعراء كانوا يذكـرون ذلـك في مطلع قصائدهم كما يذكـرون الديـار والدِّمن وفـراق الأحباب واقتحـام الفلوات وما إلى ذلك، والأمثلة على هذا كثيرة ذكرنا أشياء منها، ويقول مثلاً حسـان بن ثابت:

تـأوبـني لـيـل بـيـثرب أعسر ... وهمّ إذا مـا نـوّم النـاس مُسْهِـر

لـذكرى حبيب هَيَّجت لي عـبرة ... سفـوحاً وأسبـاب البكاء التـذكـر

وهذا مطلع قصيدة في رثاء بعض أصحاب رسول الله ﷺ.

ويقول كعب بن مالك في رثائهم:

نـام الـعيـون ودمـع عـينـك يـهـمـل

سحّـاً كـما وكف الـضبـاب المُـخْضَـلُ

في لـيـلة وردت عـلي همـومُـهـا

طـوراً أَحِـنّ وتـارة أتمـلمـل

واعـتـادني حـزن فـبـتّ كـأنـي

بـبـنـات نـعش والـسـماك مـوكّـل

معرفة الخلفاء بالشعر واللغة والأدب

اشتهر من بين الخلفاء والملوك عدد منهم كانوا يقولون الشعر ويعرفون اللغة ويتذوقون الأدب على عكس الملوك في ذلك العهد، ولم يكن بين هؤلاء أُمِّيٌّ لا يحسن القراءة والكتابة. وقد نأتي بأمثلة عديدة على ذلك، إلاّ أن ضيق المجال يجعلنا نكتفي بذكر خليفة أو خليفتين برهاناً على ذلك.

ذكروا أنه جرت ملاحاة بين عبد الله بن الزبير بن العوام وعُتبة بن أبي سفيان أمام معاوية بن سفيان، وكان عبد الله يعرّض بمعاوية في كلامه ولا يعرض بعتبة، وأطال في ذلك وأكثر، ففهم معاوية مراده وعلم أن عبد الله يريد أن يشتفي بهذا التعريض. فالتفت إليه معاوية كأنه يريد أن يؤنبه وقال متمثلاً:

ورام بعوراء الكلام كأنها
نوافِر صبح نفّرتها المراتعُ
وقد يُدْحَض المرءُ الموارب بالخنا
وقد تُدرك المرءَ الكريم المصانِعُ

يريد أن يقول له إنّه (أي إن عبد الله) مِمّن يقول كلامَ الذمّ والسَّفه ولا بدّ له من أن تزلّ قدمُه. ثم قال له يسأله: مَن يقول هذا (أي البيتين)؟ قال: ذو الأصبع العدواني. فقال معاوية:

أترويه؟ قال: لا. فقال معاوية: فمن هنا من يروي هذه الأبيات؟ فقام رجلٌ من قيس وقال: أنا أرويها يا أمير المؤمنين. قال: أنشدنيها. فأنشدها الرجل حتى وصل إلى قول ذي الأصبع:

وساعٍ برجليه لآخر قاعد
ومُعطٍ كريمٌ ذو يسار ومانعُ
وبانٍ لأحساب الكرام وهادمٌ
وخافض مولاه سفاهاً ورافع
ومُغضٍ على بعض الخطوب وقد بدت
له عورة من ذي القرابة ضاجِع
وطالبُ حُوبٍ باللسان وقلبه
سوى الحقّ لا تخفى عليه الشرائع

فقال معاوية للقيسي: كم عطاؤك؟ قال: سبعمئة. قال معاوية: اجعلوها ألفاً.

وكان معاوية يحب محادثة الرجال في الشعر والأدب، ويحب أن يسألهم ويسألوه. ويروى أن الأحنف بن قيس دخل يوماً على معاوية وكان الأحنف من أشياخ تميم وسادتهم. فأراد معاوية أن يمازحه، فقال له: يا أحنف، ما الشيء الملفّف بالبجاد؟ ففهم الأحنف مراده، وعلم أنه يريد أن يعرض بقومه تميم فردّ عليه في الحال: هو السخينة يا أمير المؤمنين. فضحك معاوية وعَجِب من سرعة خاطر الأحنف وعلمه بالشعر والأدب.

ذلك أن معاوية أراد أن يغُض من قبيلة تميم فلمّح إلى قول أبي المهوِّش الأسدي في تميم:

إذا ما مات ميت من تميم
فسرَّك أن يعيشَ فجىء بزاد

بـخـبز أو بـتـمـر أو بـسَـمْـن
أو الشيء الملفّـف بـالـبـجـاد

والشيء الملفف بالبجاد هو اللبن يغطى بهذا الثوب حتى يروب.

وأراد الأحنف الغضّ من قبيلة قريش فأشار إلى قول كعب بن مالك في طعام السخينة، وهو طعام خسيس جداً:

زعمت سخينة أن ستغلِب ربها ولَـيُغْـلَبَـنَّ مـغـالـب الـغـلّاب

وكانت قريش تسمى سخينة بآسم ذلك الطعام.

وقالوا عن عبد الملك بن مروان إنه كان أعلم الخلفاء والملوك العرب بالشعر والشعراء، يدلّ على ذلك كثرة ما روته كتب الأدب عنه في هذا الميدان. من ذلك مثلاً أنه لمّا قدم الكوفة بعد مقتل مصعب بن الزبير جلس يعترض أحياء العرب ويسأل عنها. فتقدّم إليه رجلٌ حسن الهيئة، فنظر إليه عبد الملك وسأله: من أنت؟ فسكت الرجل ولم يقل شيئاً. فأجاب عنه رفيق له وقال: نحن يا أمير المؤمنين من جديلة. ثم سأله عبد الملك: من أيكم ذو الأصبع؟ فقال الرجل: لا أدري. فقال رفيقه: كان عَدوانياً. ثم سأل عبد الملك: ولِمَ سُمي ذا الأصبع؟ فقال الرجل: لا أدري. فأجاب عنه رفيقه وقال: نهشته حية في إصبعه فيبست. ثم سأل عبد الملك: وبِمَ كان يُسمّى قبل ذلك؟ فقال الرجل: لا أدري. وأجاب عنه رفيقه وقال: كان يسمى حَرْثان. ثم سأل: من أي عدوانٍ كان. فأجاب الرفيق وقال: من بني ناجٍ الذي يقول فيهم الشاعر:

وأمّـا بـنـو نـاجٍ فـلا تَـذْكُرَنَّهُمْ
ولا تُتْبِعَنْ عينيـك مـا كـان هـالكـا
إذا قـلتُ معـروفـاً لأُصْـلح بيـنـهـم
يـقـول وُهَـيـب لا أُسالم ذلـكـا

فلم يلتفت إليه عبد الملك، وأقبل على الرجل وقال: أنشدني قوله:

عَذيرَ الحيِّ من عدوانَ كانوا حية الأرض

فقال الرجل: لست أرويها. فقال رفيقه: يا أمير المؤمنين إن شئتَ أنشدتك. فقال للرفيق: أُدنُ مني، فإني أراك بقومك عالماً. وأنشده الرجل وكان مما أنشده:

وليس المرء في شيء من الإبرام والنقض
إذا أبـرم أمـراً خـالـه يقضي وما يقضي

وأقبل عبد الملك على الرجل وقال له: كم عطاؤك؟ قال: ألفان. وسأل رفيق الرجل: كم عطاؤك؟ قال: خمسمئة. فالتفت عبد الملك إلى كاتبه وقال له: اجعل الألفين لهذا الرجل خمسمئة واجعل الخمسمئة لرفيقه ألفين.

ويروى عن معرفة عبد الملك بن مروان بالأدب أنه كتب يوماً إلى الحجّاج وقال له: أمّا بعد فإنك سالم والسلام. فلم يفهم الحجاج ما عناه الخليفة وسأل عن ذلك فقيل له إنه أراد قول عبد الله بن عمر بن الخطاب قوله في ابنه سالم:

يـديـرونـني عـن سـالم وأُديـرهـم
وجِـلدةُ بـين الـعـين والأنـف سـالم

فعرف الحجاج أن عبد الملك مدحه بذلك.

وكان عبد الله بن عمر يحب ابنه سالماً حباً شديداً حتى إنه كان يقبّله وقد شاخ سالم، فكانوا يقولون: شيخ يقبل شيخاً.

وكتب الحجاج يوماً إلى عبد الملك بن مروان يعلمه بما لِقَطَرِيّ ابن الفُجاءة زعيم الخوارج من عظم الشأن وشِدّة المِراس، فكتب إليه عبد الملك وقال في جوابه: أوصيك بما أوصى به البكري زيداً. فلم يفهم الحجاج مراده، وقال لحاجبه: نادِ في الناس وقل: من منكم يُخبر

الأمير الحجاج ما أوصى به البكري زيداً فله عشرة آلاف درهم. فقال رجل للحاجب: أنا أُخبره. فأخذ الحاجب الرجل وأدخله على الحجاج، فسأله الحجاج: ما قال البكري لزيد؟ قال الرجل: قال لابن عمه زيد متمثلاً بشعر موسى بن الحنفي:

أقول لزيد لا تترتر فإنهم
يرون المنايا دون قتلك أو قتلي
فإن وضعوا حرباً فضعها وإن أبوا
فشُبّ وقود الحرب بالحطب الجزل
فإن عضّت الحربُ الضروس بنابها
فعُرضة نار الحرب مثلك أو مثلي

فقال الحجاج: صدق أمير المؤمنين: عُرضة نار الحرب مثلي أو مثله.

وتترتر الرجل إذا تزلزل واضطرب.

ويُرْوى أيضاً أن عبد الملك كتب إلى الحجاج يقول من جملة ما قاله: ما أعرف أني أرى لك مثلاً إلّا قِدْح بن مُقْبل. ولم يفهم الحجاج قصد أمير المؤمنين، واغتمّ لذلك. واتفق أن دخل عليه قُتَيبة بن مسلم وكان راوية للشعر حافظاً له عالماً به وكان أميرَ خراسان في زمن عبد الملك بن مروان مِن قِبل الحجاج. فسأله الحجاج عن قدح ابن مُقبل، فقال له: أَبْشِر أيها الأمير فإنه قد مدحك، أما سمعتَ قول الشاعر ابن مقبل وهو يصف قدحاً له:

غدا وهو مجدول وراح كأنه
من المسّ والتقليب في الكف أفطحُ
خروجٌ من الغمّاء إن صُكّ صكّة
بدا والعيون المستكِفة تلمحُ

فسُرّ الحجاج بذلك.

ويروى أن عبد الملك بن مروان سأل يوماً جلساءَه، وكان يتجنب غيرَ الأدباء: أيُّ المناديل أفضل؟ يريد أن يعرف مقدار علمهم بالشعر. فقال أحدهم: أفضلها مناديل اليمن، كأنها أنوار الربيع. وقال آخر: مناديل مصر كأنها لِرِقّتها غِرقىء البيض، فقال عبد الملك: ما صنعتم شيئاً، أفضل المناديل منديل عَبْدة. يريد عبدة بن الطبيب، وذلك حين يقول من قصيدة:

ولّما نزلنا نَصَبنا ظِلّ أخبية
وفار للقوم باللحم المراجيل
نعفي من الحُمر ما يُؤتي الطُّباخ به
ما غيّر الغَلي منه فهو مأكول
ثُمّتْ نهَضنا إلى جُردٍ مُسوَّمةٍ
أَعرافهنّ لأيدينا مناديل

وذكروا أن عبد الملك بن مروان حجّ سنة خمس وسبعين بعد أن أطاعه الناس واجتمعوا عليه بعامين، وبعد انتهاء فتنة ابن الزبير، وذهب إلى المدينة، وفي المسجد هناك جلس على المنبر وشتم أهل المدينة ووبّخهم، ثم قال: إني والله يا أهلَ المدينة قد بلوتكم، تنفسون القليل وتَحْسدون الكثير، وما وجدت لكم مثلاً إلاّ قول مُخَنَّثكم وأخيكم الأحوص:

وكم نَزَلَت بي من خطوب مُلمّة
صَبَرْت عليها ثم لم أتخشَّع
وأدبر عني شرُّها لم أُبَلْ بها
ولم أدْعُكُمْ في كربها المتطلَّع

فقام إليه نَوْفل بن مُساحِق وقال: يا أمير المؤمنين، قد أقررنا

بـالذنب وطلبنـا المعذرة، فَعُد بحلمِـك، فذلـك مـا يُشبِهنـا مِنـك ومـا يشبهك منا، فقد قال من ذكرتَ بعد البيتين:

وإني لمسـتـأن ومـنـتـظر بـكـم
وإن لم تـقـولـوا في المُـلِمّات دَعْ دَعِ
أُؤَمِّـل مـنـكـم أن تَـرَوا غير رأيـكم
وَشِيكـاً وكيـما تنـزِعـوا خـيرَ منـزِعِ

وكـان عبد الملك ـ كـما ذكرنـا ـ يُحِبّ أن يسأل النـاسَ عن الشعر وعن معرفتهم به، فقـد نصب يوماً الموائـد يطعم النـاس وطاف عليهـا حتى وقف على مائدة رجل عِراقي، فسأله من القائل:

إذا الأَرطَـى تـوسَّـد أَبْـرَدَيْـه
خـدودُ جَـوازِىء بـالـرمـل عِـينِ

وما معناه، ومن أجاب أَجَزْنَاه. فقال الرجل العراقي لخادم الملك: هذا البيت يقوله عديّ بن زيد في صفـة البطّيخ. فنهض الخادم مسروراً إلى عبـد الملك فأخـبره بقول العـراقي فضحـك عبـد الملك وأغـرب في الضحـك حتى كـاد يسقط، فقـال الخـادم: أَخـطأْتُ أم أَصبت؟ فقـال عبـد الملك: بل أخـطأتَ. فقال الخـادم: هذا العـراقي لقنني الجواب. فأُتِي بالعراقي وسأله عبد الملك: أنتَ لَقَّنتـه هذا الجـواب؟ قال: نعم. فقال عبد الملك: أَصواباً لقنته أم خطأً؟ فقال العراقي: بل خطأً. فقـال عبـد الملك: وَلِمَ؟ فقـال: أردت أن أَكفـه عني وأضحـك منـه. فقـال عبـد الملك: وما الصـواب؟ فقال: هـذا البيت يقولـه الشمّاخ بن ضرار الغـطفاني في صفـة البقر الـوحشيـة التي اجـتزأت (أي اكتفت) بـأكـل الرَّطب من النبات عن شرب الماء. فقال عبد الملك: صدقت. وأمـر له بجائزة، ثم قال له: هل لك حاجة؟ قال: نعم. أن تنحّي هذا عن بابك فإنه يشينه.

المغالطة الحسِّية في الشعر العربي

المغـالـطة الحسيـة عبـارة وضعتهـا أنـا إزاء الـعبـارة الإنكليـزيـة Pathetic Fallacy التي وضعها الفنّان الإنكليزي رَسْكن Ruskin وعنى بها أن الفنان كالشاعر يرى في الأشياء الطبيعية من جماد ونبات وحيوان أنها تحس وتشعر كما يحس ويشعر الإنسان. وهذه الصفة للشعـر أو الشاعـر قليلة الوجود في الآداب الغربية، ولم تكن موجودة إلا في الشعر اليونـاني القـديم. وهي سائـدة في الشعـر العـربي من القـديم. وسـآتي في هـذه القطعة بأمثلة على ذلك من أقوال الشعـراء في الجاهليـة والإسلام ومن المحـدثـين في القـرون الأخيـرة. ولا أدري إذا الشعـراء العـرب كـانـوا يستعملون هذا الأسلوب لأنه بقية من فكرة عند الأقوام البـدائية يقـال لها animism كانوا يؤمنون بها وهي أن الأشياء حتى الجمادات فيها روح تحركها، فالريـح إذا هبت فهي لا تهب إلا بفعل الـروح الكامنـة فيها. والنهـر إذا جرى فـلا يجري إلا بـدفـع تلك الـروح، والغصن إذا اهـتز وتمايل فإنما يفعل ذلك بفعـل تلك الروح. فـالشاعـر إذا خاطب داراً أو كلّم نهراً أو شجرة أو طائراً فإنـه كان يفعـل ذلك كفعـل رجل من تلك الأقـوام بالفكـرة نفسها، وهـذا أمر يحتـاج إلى بحث. خـذ مثـلاً قـول النابغة:

يـا دار ميّـة في الـعليـاء فـالسـنـد
أقـوت وطـال عليهـا سـالـف الأمـد

وقفت فيها أصيلاناً أسائلها

عيّت جواباً وما في الحيّ من أحد

وقول أخت الوليد بن طريف:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً

كأنك لم تجزع على ابن طريف

وقول أبي فراس الحمداني:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة   أيا جارتا هل تشعرين بحالي

وقد ذكرنا في هذا الكتاب أمثلة كثيرة على مخاطبة الشاعر للحمامة، ونذكر أيضاً في هذه المناسبة أيضاً قوله عنترة:

يا طائر البان قد هيّجت لي شجناً   وزدتني حزناً يا طائر البان

هل كان الشاعر يعتقد بأن الدار تعقل أو تسمع حتى يخاطبها؟ أو كانت الحمامة أو الشجرة تُحس وتشعر؟

فهذه الأقوال وأمثالها، وهي كثيرة في الشعر العربي، قد تكون دليلاً على وجود بقايا للوثنية القديمة، تلك الوثنية التي قدست القوى الطبيعية كالريح والرعد والبحر والشمس والقمر والجبال والنجوم، وأدت إلى عبادة الأصنام على أنها آلهة. ثم جاءت الأديان فأبطلت بعضها وأثبتت بعضها الآخر. ولكن بعض المعتقدات طويلة الذماء لا تموت. وفي اللغة العربية من الأفكار الوثنية ما يتصل بالدهر والزمان والأيام والليالي، وكيف أن هذه تتصرف بمصائر الإنسان فتسعده أو تشقيه وتفقره أو تغنيه، ويكاد الشاعر العربي المسلم يخرج من الإسلام إذا نسب للدهر أو الزمان مثلاً ما ينسب إلى القضاء والقدر من الله سبحانه وتعالى. خذ مثلاً قول أبي محجن الثقفي:

ألم تَرَ أن الدهر يلعب بالفتى

ولا يستطيع المرءُ صَرْفَ المقادر

وقول أبي دؤاد الإيادي الجاهلي:

والدهر يلعب بالفتى
والدهرُ أروغ من ثُعاله

وقالوا عن تقلب الدهر وصروف الزمان وفعل الليالي والأيام.

ويقول حارثة بن بدر:

وجرّبت ماذا العيش إلاّ تَعِلّة
وما الدهر إلاّ مَنْجنون يُقلّب

ويقول خَيْثَمَة بن معروف الأعشى:

فلا يَغُرَّنْكَ من دهر تقلّبه
إن الليالِيَ بالفتيان تنقلب

ويقول صالح البشنتريني:

وما الدهر في حال السكون بساكنٍ ولكنه مُسْتَجْمِع لوثوب

وحضّ الشعراء الناس على الصبر على تقلبات الدهر وصروفه والتسليم لحوادثه، كقول أبي العتاهية:

مَن سابق الدهر كبا كبوةً لم يَسْتَقِلْها من خُطى الدهر
فاْخْطُ مع الدهر على ما خطا واْجْرِ مع الدهرِ كما يجري
ليست لمن ليس له حيلة موجودة خير من الصبر

وقول محمود الوراق:

الدهرُ لا يبقى على حالة
لكنه يُقبل أو يدبر
فإن تلقّاك بمكروهه
فاْصْبر فإنَّ الدهرَ لا يَصْبِر

وقول ابن زَيْلاق يوسف:

فـالـدهـر لا يـبقـى عـلى حـالاتــه
فـيـجـور أحـيـانــاً وحـيـنــاً يَـعـدلُ

صـبـراً فـكــلّ مُـلِمَّــة مِـن بـعــدهــا
فــرج وكــلّ عــســير أمــر يَـسْــهــلُ

وقول الشعراء عن الدهر شبيه بقولهم عن الزمان، كقول اسماعيل الشاشي من قصيدة له عن الزمان وعن أهل زمانه:

بــلى كــلُّهـم مـثــلُ الـزمــان تـلوّنــاً
إذا سَرّ منهم جـانــب سـاء جـانـب

وقول ابن عمّار الكوفي:

لئــن بــسط الــزمــان يَــدَيْ لئـيــم
فــصــبــراً لــلذي فــعــل الــزمــانُ

فـقــد تـعــلو عــلى الـرأس الــذُّنَــابَى
كــما يــعــلو عــلى الــنــار الــدخــانُ

وقول ناصح الدين الأَرَّجاني:

هــذا الـزمــان عـلى مــافيــه من عِــوَج
يَحكـي انـقــلابَ لـيــاليــه بــأهـليــه

غــديــرَ مــاء تــراءى فـي أســافــلـه
خــيــال قــوم تَمَــشّوا في نواحــيــه

فــالــرجــل تــنـظر مــرفوعــاً أسافلهــا
والــرأس يــنظر مــنــكوســاً أعالــيــه

وقول أبي الحسن التِّهامي:

نــنــافِس في الــدنــيــا غــروراً وإنمــا
قُصَــارَى غنــاهــا أن تعــودَ إلى الفقــر

وإنـا لفي الـدنيـا كركـب سفينـةٍ

نُـظن وقـوفـاً والـزمـان بنـا يجـري

ونسب الشعراء إلى الدنيا ما نسبوه إلى الدهر والزمان، كقول ابن عبد ربّه:

ألا إنمـا الـدنـيـا غـضـارة أيكـة

إذا اخضرّ منهـا جـانب جف جـانـب

هـي الـدار مـا الآمـال إلّا فـجـائـع

عـليهـا ولا الـلذات إلّا مـصـائـب

فكم سخّنت بـالأمس عينـاً قـريـرةً

وقـرّت عيـونـاً دمعهـا الآنَ سـاكب

فـلا تـكتـحِـلْ عينـاك منهـا بعـبرة

عـلى ذاهـب مـنهـا فـإنـك ذاهـب

وقـال الشعراء عن الليـالي والأيام مـا قالـوه عن الزمـان. كقـول طرفة بن العبد:

ستبـدي لـك الأيـام مـا كنت جَـاهـلاً

ويـأتـيـك بـالأخبـار مـن لم تـزوّد

وقول حسين بن الضحاك في رثاء المتوكل:

إن الـليـاليَ لم تُحْـسِـنْ إلى أحـدٍ

إلّا أسـاءت إلـيـه بـعـد إحـسـان

أمـا رأيت صروفَ الـدهـر مـا فعلت

بـالهـاشمي وبـالـفتـح بـن خـاقـان

وقال الشافعي:

دَع الأيـام تـفـعـل مـا تـشـاء

وطِبْ نـفـسـاً إذا حـكـم الـقـضـاء

ونسبوا إلى الشافعي قوله أيضاً:

أحسنتَ ظنّك بالأيام إذ حسنت
ولم تخَف سوءَ ما يأتي به القَدَر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها
وعند صفو الليالي يحدث الكدر

فقد سوّى الشعراء هنا بين القضاء والقدر وبين فعل الليالي والأيام.

وخاطب الشعراءُ الحمام. وقد ذكرنا من ذلك الشيء الكثير في موضوع «الحمام في الشعر العربي»، ويكفي أن نذكر هنا قول أبي الحسين النووي:

رُبّ ورقاءَ هتوفٍ في الضحى
ذات شجوٍ هتفت في فنن
ذكرت إلفاً وخدناً صالحاً
فبكت حزناً فهاجت حَزَني
فبكائي ربما أرّقها
وبكاها ربما أرّقني
ولقد تشكو فما أفهمها
ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها
وهي أيضاً بالجوى تعرفني

بل إن الشعراء خاطبوا الطائر كقول عنترة:

يا طائرِ البان قد هيّجت لي شجناً
وزدتني حزناً يا طائر البان

إن كنت تندب إلفاً قد فجعت به
فقد شجاك الذي بالبين أشجاني
زِدني من النوح وآسعدني على حزني
حتى ترى عجباً من فيض أجفاني

حتى إنهم خاطبوا الغراب من الطير فقد قال عروة بن حزام:

ألا يا غرابي دمنة الدار بَيِّنا
ألِلصَّرْمِ من عفراء تنتحبان
فإن كان حقًّا ما تقولان فآنهضا
بلحمي إلى وكريكما فكلاني
ولا يَدْرِيَنّ الناس ما كان ميتتي
ولا يأكلنّ الطير ما تذران

وقال عبد الله بن قيس الرُّقيّات:

بشّر الظبي والغراب بسُعْدى
مرحباً بالذي يقول الغراب
قال لي إنّ خيرَ سعدى قريب
قد أنَى أن يكون منه اقتراب
قلت أنَّى تكون سعدى قريباً
وعليها الحصون والأبواب

ونسبوا إلى الناقة والبعير حزناً وشوقاً وحنيناً كقول النجاشي:

رأت ناقتي ماءَ الفرات وذَوْقه
أمرَّ من السم الزعاف وأمقرا
وريعت من الماقول لمّا رأت به
صياحَ النبيط والسفينَ المُقَيَّرا

وحنّت حنيناً موجعاً هيّجت به
فؤاداً إلى أن يدرك الرّبوَ أصورا

فقلت لها بعض الحنين فإنّ بي
كوجدك إلّا أنني كنت أصبرا

وخاطبوا الديار وآثارها ورسومها كما خاطبوا الأشجار والنخيل والوديان والرمال خطاب من يعقل. ومخاطبة الديار والأطلال والرسومِ والآثار والدّمن مشهورة في الشعر الجاهلي والإسلامي. ولا حاجةَ إلى ذكر أمثلة من الشعر الجاهلي، ونكتفي بذكر شيء من الشعر الإسلامي. ومن ذلك قول يحيى بن طالب يخاطب الأَثْل من الأشجار:

أيا أثلاتِ القاع من بطن تُوضَحٍ
حنيني إلى أظلالكنَّ طويل

ويا أثلاتِ القاع قلبي موكّل
بكنّ وجدوى خيركن قليل

ويا أثلاتِ القاع قد ملّ صُحبتي
مَسيري فهل في ظِلكن مقيل

ألا هل إلى شمّ الخزامى ونظرة
إلى قَرْقَرَى قبل المماتِ سبيل

فأشرب من ماء الحُجيلاءِ شربةً
يداوَى بها قبل الممات عَليل

أُحَدّث عنكِ النفس أن لست راجعاً
إليكِ فحزني في الفؤاد دخيل

ويقول أحمد بن فارس اللغوي:

أيا أثلاتِ الشعب من مرج يابسٍ
سلام على آثاركن الدّوارس

لقد شاقني والليل في شَملة الحَبا
إليكن ترجيع النسيم المخالِس
ولمحةُ برق مستضيء كأنه
تردّد لحظ بين أجفان ناعس
فبتّ كأني صعدة يمنية
تُزَعْزَع في نَقع من الليل دامس
ألا حَبّذا صبح إذا آبيضَّ أفقُه
تصدع عن قرن من الشمس وارس
فيا طارق الزوراء قل لغيومها
أهلِّ على مغنى من الكرخ آنِس
وقُل لرياض القُفص تهدي نسيمَها
فلست على بعد المزار بآيس

وحديث مطيع بن إياس مع نخلتي حُلوان مشهور وها هو يخاطبهما:

أسعداني يا نخلتي حلوان وآرثيا لي من ريب هذا الزمان
وآعلما أن ريبه لم يزل يفرُق بين الألّاف والجيران
ولعمري لو ذقتما ألمَ الفُرقة قد أبكاكما الذي أبكاني

وذاع خبر هاتين النخلتين حتى تغنى بهما الشعراء، فقال حماد عجرد:

جعل الله سِدْرَتيْ قصرِ شِيرينَ
فِداءً لنخلتيْ حُلوان
جئتُ مُسْتَسْعِداً فلم تسعِداني
ومُطِيعٌ بكت له النخلتان

وخاطبوا الوديان كقول ابن القوطية في وادي الطّلح :

ضُحًى أناخوا بوادي الطلح عِيَرهم
فأوردوها عِشاءً أيَّ إيراد

أكرِم به وادِياً حل الحبيب به
ما بين رند وصَفصاف وفِرصاد

يا وادياً سار عنه الركب مرتحِلاً
بالله قل أين سار الركب يا وادي

أبالحِمى نزلوا أم باللّوى عدلوا
أم عنك قد رحلوا خُلفاً لميعاد

بانوا وقد أورثوا جسمي لبينهم
سُقماً وقد قطعوا بالبين أكبادي

ويقال إن امرأة من مازن تزوجت برجل فحملها على بَكْر أو بعير فلما صارت في بعض الطريق جعلت تذكر إخوتها وأخواتها وتبكي وجعل البكر يَحِنّ بصوت ضعيف حزين كأنه يبكي معها، فقالت:

ألا أيها البكر الأباني إنني
وإياك في كلب لمغتربان

أحنّ وأبكي إن ذا لَبَلِيّة
وإنّا على البلوى لمصطحبان

وإنَّ زماناً أيها البكر ضمّني
وإياكَ في وادٍ لشرُّ زمان

وقالوا عن البرق، كقول شمس الدين الواعظ الكوفي وفيه أشياء أخرى:

بدا البرقُ من حُزْوى فهاج حنينه
وهبّ صبا نجد فزاد أنينُه

وغـنّى لـه الحـادي بـأيـام حـاجِـر

فـفاضـت بـأمـطـار الـدمـوع جُفـونـهُ

غـريبٌ بعـيـد الـدار فـارق أهـلـه

كئيـبٌ وحيـد غـاب عـنـه قـريـنـه

أُهيْـلَ الحِمى بِنْتُمْ فـدمعـيَ مـطلق

وقلبي قـد ضـاقـت عليـه شجـونـه

أهيـل الحمى لا أوحش الـربـع منكمُ

لـقـد كـنـتـمُ للربـع زيـنـاً يـزيـنـه

مـررتُ عـلى الـوادي وكـان زمـانكم

بـلابـلـه تـشـدو وتجـري عـيـونـه

فـأبصرتـه من بعـدكم وهـو قـد عفـا

وأقـفـر مـنـه سـهـلـه وحـزونـه

فـنـاديتـه أيـن الـذيـن عـهـدتُهم

هنـا وغـديـر العيش صـافٍ معينـه

فـقـال لِيَ الـوادي: نـأوْا وتـرحّلوا

وهـذا فـؤادي لـلتـنـائي حـزيـنـه

وحـدث أبو العبـاس أحمد بن يحيى النحـوي عن غلام كـان بين قومهِ وقد أضناه الحب حتى صـار جلداً وعظماً فلمـع برق فـذكر الغـلام موطنه فقال:

ألا يـا سـنـا برق على قُلَل الحِـمـى

لـيهـنـك مـن بـرق عـليَّ كـريـم

لمعتَ اقـتـداءَ الـطير والقـوم هُجَّـع

فـهـيـجـتَ أسـقـامـاً وأنـتَ سَـليم

فَـبِـتّ بـحـدّ المِـرفـقـين أشـيـمـه

كـأني لـبرق بـالـسّـتـار حمـيـم

وخاطبوا الريح كقول علي بن أُميّة:

يا ريحُ ما تصنعين بالدِّمنِ
كم لك من محو منظرٍ حسنِ
محوتِ آثارنا وأحدثتِ آثاراً
بربع الحبيب لم تكنِ
يا ريح لا تطمسي الرُّموسَ ولا
تمحي رسومَ الديار والدِّمَن
حاشاكِ يا ريح أن تكوني علـ
ـلى العاشق عوناً بجانب الزمن

وقول عنترة:

نَسيمَ الريح إن أدلجتَ يوماً
قُبَيل الصبح بلِّغها سلامي
وخبِّرها شديدَ الشوقِ مني
إليها في الصباح وفي الظلام
وصِف حالي وما ألقاه منها
فجسمي ذاب من ألم السقام

وخاطبوا النسيمَ كنسيم الصَّبا ونسيم الريح كقول يحيى بن صاعد:

نسيمَ الصِّبا بلّغ سلامي إليهمُ
فقلبي وروحي حاضران لديهمُ

وكقول علي بن عبد العزيز الجرجاني:

يا نسيمَ الجنوب بالله بلِّغ
ما يقول المتيِّم المستهامُ

قــل لأحــبــابــه فــداكــم فــؤاد
لــيس يــســلو ومــقــلة لا تــنــامُ

وكقول عبد الصمد بن بابك:

جــرى في عــوده مــاء الشبــاب وأسكــره الصِّبا سكــرَ الشراب
فــقــام وفي معــاطــفــه التِــواءٌ يُــقَــوِّم زيغــه مَــرح التصــابي
ومَــرّ بــنــا النسيــمُ فــرقّ حتى كــأني قــد شكــوتُ إليــه مــا بي

* * *

نحويَّان عند الامتحان !.

اجتمع ابراهيم النظّام وضِرار بين يدي الرشيد وتناظرا في القضاء والقدر، وأمعنا في ذلك حتى دقّت المناظرة عن فهم الرشيد. فقال الرشيد لبعض خدمه: اذهب بهذين إلى الكسائي حتى يتناظرا بين يديه ثم هو يُخبرك لمن كان الفَلْج (الغَلبة) منهما. فذهبا مع الخادم، ولمّا صارا في بعض الطريق قال ابراهيم النظّام لضِرار: أنت تعلم أن الكسائي لا يُحسن شيئاً من النظر، وإنما مُعَوَّله على النحو والحساب، فهيِّيء له أنت مسألة نحو وأُهيىء أنا له مسألة حساب فنشغله بهما لأنّا لا نأمن أنه إذا سمع منا ما لم يسمعه ولم يبلغه فهمه فإنه ينسبنا إلى الزندقة. فلما صارا إليه سلّما عليه ثم بدأ ضرار فقال له: أسألك ـ أصلحك الله ـ عن مسألة في النحو. قال الكسائي: هاتها. فقال ضرار: ما حدّ الفاعل والمفعول به؟ قال: حدّ الفاعل الرفع أبداً وحد المفعول به النصب أبداً فقال ضِرار: فكيف تقول: ضُرِب زيدٌ، وزيد هو المفعول به، أي المضروب؟ فلِم رفعتَ زيداً وقد شَرطت أن المفعول به منصوب أبداً؟ قال الكسائي: لأنه لم يُسَمّ فاعل الضرب والفعل مبني للمجهول. فقال ضرار: ومن جعل لك الحكم في أن تجعل الرفع لم يُسمّ فاعله؟ قال: لأنا إذا لم نذكر الفاعل أقمنا المفعول به مقامه لأن الفعل الواقع عليه غير مستحكم النقص وعدم النقص مطابق للرفع،

فإذا ذكرنا مَن فعل به وأفصحنا بذلك نصبناه. فقال له ضرار: فإن كان النصب مطابقاً للنقص فمن لم يسمّ فاعله أولى به، لأنا إذا قلنا: ضُرب زيدٌ فقد يمكن أن يكون ضربه مئة رجل، وإذا قلنا: ضرب عبد الله زيداً فلم يضربه إلاّ رجل واحد، فالذي أمكن أن يضربه مئة رجل أحق بالنصب والنقص ممن لم يضربه إلاّ رجل واحد. فوقف الكسائي ولم يدر ما يقول.

ثم قال له النظّام:

أسألك عن مسألة في الحساب، كم جذر عشرة؟ قال الكسائي: أجمع الحُسّاب على أنه لا جذر للعشرة. قال النظام: هل عَلِم الله جذرها؟ قال الكسائي: الله عالم كلّ شيء. قال النظام: ألا يجوز أن يكون الله ألقاه إلى نبيّ من أنبيائه ثم منه إلى صفيّ من أصفيائه، ثم منه حتى صار علم جذر العشرة عندي، فأنا أكون أعلم جذرها ولا تعلمه أنت. فالتفت الكسائي إلى الغلام وقال له: إذهب بهذين إلى أمير المؤمنين وقل له إنهما زنديقان كافران بالله العظيم.

والكسائي هو علي بن حمزة بن عثمان من ولد بهمن بن فيروز مولى بني أسد كان إمام الكوفيين في النحو وأحد القراء السبعة المشهورين، وهو من أهل الكوفة واستوطن بغداد وتعلّم النحو على كبر، وسبب ذلك أنه جاء إلى قوم وقد أعيا (أي تعب) فقال: قد عَييت، فقالوا له: تجالسنا وأنت تلحن. قال: وكيف لحنتُ! قالوا: إن كنتُ أردت انقطاع الحيلة فقل عَيِيتُ وإن أردتَ من التعب فقل أَعيَيت.

ويقال إن الكسائي أخذ اللغة عن أعراب من الحُطَمة كانوا ينزلون بِقُطْرُبّل، وعلى هذا قول أبي محمد اليزيدي:

كنا نقيس النحو فيما مضى ... على لسان العرب الأُوَّل
فجاء أقوام يقيسونه ... على لُغى أشياخ قُطرُبُّل

فكلهـم يـعـمل في نـقض مـا بـه نـصـاب الحـق لا يـأتـلي
إن الـكـسـائـيَّ وأصـحـابَـه يَـرْقَـون في النحـو إلى أسفـل

وقال أيضاً فيه:

أفسـد الـنـحـو الـكـسـائـي وثَـنَى اِبـنُ غـزالـة
وأرى الأحمـرَ تـيـسـاً فـآعـلُفـوا التيسَ النُخـالـة

والأحمر علي بن مبارك كان صديقاً للكسائي. وابن غزالة لا أعرفه. والفرّاء هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن مروان الدَّيْلمي وكان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي، وكان يقال: الفرّاء أمير المؤمنين في النحو، وكنيته أبو زكريا. وسُئِل الفراء يوماً: ما تقول في من سها في سجدتي السهو؟ قال: لا شيء عليه. فقيل له، من أين لك ذلك؟. قال: قِسته على مذاهبنا في العربية فإن المصغَّر لا يُصَغَّر.

وكان الفرّاء معاصراً للكسائي يلقاه بين الحين والآخر في بغداد. واشترك الكسائي في جدل سيبويه في المسألة الزنبورية وهي أن العرب تقول قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي أو فإذا هو إياها، وكان رأي سيبويه: فإذا هو هي لا غير. ورأى الكسائي: فإذا هو هي وفإذا هو إياها. ويقال إن الغلبة كانت للكسائي وكان الفراء حاضراً.

وحدّث أبو الكرم خميس بن علي الجوزي النحوي في أماليه قال: قدم أبو سعيد الحسن بن الحسين السُّكَّري بغداد فحضر مجلس الفراء وهو يومئذ شيخ الناس فيها في النحو واللغة. فأملى الفراء باباً في التصغير قال فيه من جملة ما قال: هو الهنُ أي الشيء تصغيره الهُنَيّ وتثنيته في الرفع الهُنَيّان، وفي النصب وفي الجر الهُنَيّين. وأنشد على ذلك قول القتّال الكلابي:

يـا قـاتـل الـله صُلعـانـاً تجيء بهـم
أم الهُـنَـيـيْنَ مـن زنـدٍ لهـا واري

فأمسك أبو سعيد حتى إذا انفضَّ المجلس ولم يبق فيه أحد سوى الفراء تقدّم أبو سعيد حتى جلس بين يديه وقال له: أكرمك الله، أنا رجل غريب، وقد مرَّ في كلامك شيء أتأذن لي في ذكره؟ فقال الكسائي: أُذْكرْه. فقال أبو سعيد: إنك قلتَ هو الهَنُ وأن تصغيره هو الهُنَيّ وتثنيته في الرفع الهُنيّان وفي النصب وفي الجر الهُنَيَّين، ثم أنشدت قول القتّال الكلابي:

يـا قـاتـل اللهُ صُلعـانـاً تجيء بهـم
أمّ الهُـنـيَّـين مـن زنـد لهـا واري

وهذا البيت ليس كما أنشدنا إياه أشياخنا. فقال الفراء: ومن أشياخك؟ قال: أبو عُبيدة وأبو زيد والأصمعي. قال الفراء: وكيف أنشد أشياخك البيت؟ قال: زعموا أن الهِنْبَر بوزن الخِنْصر وهو ولد الضبع وأن القتّال الكلابي قال:

يـا قـاتـلَ الـله صُلعـانـاً تجيء بهـم
أم الهُـنَـيْـبر مـن زنـد لـه واري

والهُنَيْبر تصغير الهِنْبر وليس على تصغير الهَن، وتثنيته. ففكر الفراء ساعة في ذلك ثم قال: أحسن الله جزاءك عن هذه الفائدة بحسن الأدب.

ليل البق والبراغيث والبعوض...

كان لي زميل في التعليم في المدرسة البكرية في القدس اسمه نزار أبو السعود وكان شاعراً وعالماً باللغة العبرية عدا عن اللغة العربية. وحدث أنه اتّهم بجرم فسجن ليلة في سجن في قشلاق (قشلة) القدس، فقال في ذلك من أبيات:

بتنا بقشلتكم والدّنص[1] حاضرنا
فخِلت نفسي في أرض البرستول
إن قام يرقص برغوث بساحتها
غنّى البعوض له طيب الأقاويل
نُصارع البقّ فيها دائماً أبداً
فلا ترى غير قتّالٍ ومقتول

وأذكرتني هذه الأبيات قول ابن شرف القيرواني واستعمل الذباب بدلاً من البق حيث قال:

لكَ منزلٌ كملت ستارته لنا
للّهو لكن تحت ذاك حديث
غنى الذباب وظل يزمر حوله
فيه البعوض ويرقص البرغوث

(١) الدّنص: كلمة فرنسية dânse معناها الرقص.

ويسمي العرب البق والبراغيث والبعوض بالباءات الثلاث، وبعضهم يضع البرغش بدلاً من البعوض، ومنه قول أبي الحسن المقدسي:

ثلاث باءات بلينا بها   البق والبرغوث والبرغش
ثلاثة أوحش ما في الورى   ولست أدري أيها أوحش

وفي الأوراق للصولي قصيدة في البق والبراغيث والبرغش للقاسم ابن يوسف.

ورأيت لأحدهم ولا أعرف اسمه قوله:

ليل البراغيث والبعوض   ليل طويل بلا غموض
فذاك ينزو بغير رقص   وذا يغني بلا عروض

ورأيت في المستطرف لأعرابي:

ليل البراغيث أعياني وأنصبني
لا بارك اللّه في ليل البراغيث
كأنهن وجلدي إذ خلون به
أيتام سوء أغاروا في المواريث

ويقول أبو الرمّاح الأزدي في البرغوث:

تَطاول بالفسطاط ليلي ولم يكن
بوادي الغضا ليلي عليّ يطول
تؤرقني حدب قصار أذلة
وإن الذي يؤذينه لذليل
إذا جلت بعض الليل منهن جولةً
تعلقن في رجليّ حيث أجول
إذا ما قتلناهن أُضعفْن كثرة
علينا ولا يُنعى لهن قتيل

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
وليس لبرغوث علي سبيل

وقال ابن أيبك الصفدي:

أشكو إلى الرحمن ما نالني
من البراغيث الخِفاف الثِقال
تعصبوا بالليل لما دروا
أني تقنعت بطيف الخيال

وألغز مجد الدين أبو الميمون الكناني في البراغيث فقال:

ومعشر يستحل الناس قتلهم
كما استحلوا دم الحُجاج في الحرم
إذا سفكت دماً منهم فما سفكت
يداي من دمه المسفوك غير دمي

وقال الحسن بن سكّرة الهاشمي في غلام يعرف بآبن برغوث:

بليت ولا أقول بمن لأني
متى ما قلت من هو يعشقوه
حبيب قد نفى عني رقادي
فإن أغمضت أيقظني أبوه

وقال أحمد بن أيوب من شعراء اليتيمة:

لا أعذل الليل في تطاوله
لو كان يدري ما نحن فيه نَقَص
لي والبراغيث والبعوض إذا
أجَنّنا حندس الليل قِصص
إذا تغنى بعوضه طرباً
أطرب برغوثه الغنا فرقص

وقال السميسر في البعوض:

بعوض شربن دمي قهوة
وغنّينني بضروب الأغانْ
كأن عروقيَ أوتارهنّ
وجسمي الرّباب وهن القيان

وقال ابن رشيق القيرواني:

ما لي بعثتَ إليّ ألف بعوضة
وبعثتَ واحدةً إلى النمروذ
يا رب لا أقوى على دفع الأذى
وبك استعنتُ على الضعيف الموذي.

والضعيف الموذي هو البعوض. وكانوا يحتقرون البعوضة وبعضهم يسميها الناموسة، وفي الأمثال العامة: ناموسة هدّت (أي استقرّت) على قرن جاموسة، ويقول أبو الفتح البستي:

لا تستخفنْ بالفتى بعداوة
أبداً وإن كان العدو ضئيلا
إن القذى يؤذي العيون قليله
ولربما جرح البعوض الفيلا

ويقول محمد بن العباس الخوارزمي في الوزير أبي القاسم المزني لما قبض عليه:

لا تعجبوا من صيد صعوٍ بازياً
إن الأسود تصاد بالخرفان
قد غرّقت أملاك حمير فأرة
وبعوضة قتلت بني كنعان

وهذا يشير إلى قول عُمارة اليمني:

ولا تحتقر كيد الضعيف وربما
تموت الأفاعي من سموم العقارب
فقد هدّ قدماً عرش بلقيس هدهد
وخرب فأر قبل ذا سدّ مأرب

وذكروا أن البعوضة هي البقة، ومن ذلك قول زفر بن الحارث:

ألا إنما قيس بن عيلان بقة
إذا وجدت ريح الحصير تغنت

ورأيت في أحد المراجع أن بعض الظرفاء كتب إلى صاحبه:

أشكو إليك براغيثاً بُليت بها
سوداً إذا انتبهوا في الليل لم أنم
أَصِيد هذا فيبقى ذا فيلدغني
فينقضي الليل في صيدي ولدغهم
وقد تيقنت أني ليس ينقذني
سوى ابنة الكرم يا ابن الجود والكرم
فآبعث إلي دمَ العنقود أشربها
لكي أنامَ ولا أشعر بسفك دمي

والعرب يحتقرون البقة ويستضعفونها ويقولون في المثل: أضعف من بقة. وفي حديث لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: وما ابن آدم تؤلمه بقة وتنتنه عرقة وتقتله شرقة.

وقال علي بن عبد الغني الحصري:

ضاقت بلنسية بي وذاد عني غموضي
رقص البراغيث حولي على غناء البعوض

وقال أبو إسحاق الصابي في البق مع الحرّ:

ولـيـلةٍ لم أذق من حرّهـا وسـناً
كأن من جـوّها الـنـيران تـشتـعـل

أحـاط بي عـسكـر لـلبق ذي لجـب
مـا فـيـه إلا شجـاع فـاتـك بـطل

من كـل سـائلة الخـرطـوم طـاعـنـة
لا تحجب السّجفُ مسراهـا ولا الكـلل

طـافوا علينـا وحرّ الصيف يـطبخنـا
حتى إذا طُبـخت أجسـامنـا أكـلوا

وقال الزعفراني من شعراء اليتيمية من أبيات:

ويـا ويـلي مـن الـليـل المـوافي
فـإني حـين يـطرق في جـهـاد

لـه جـيـشا بـراغـيـث وبـقّ
يُـطِل عـلي إطـلال الجـراد

ولي فـرش هـي المـيـدان فـيـه
بـراغـثـه وخمشي في اطـراد

وبـقّ فـعـله في كـل عـضـو
فـعـال الـنـار في يَـبَس الـقـتـاد

عـصـائـب ينتحـين عـلى عـروقـي
بـعُـوج كـالمبـاضـع في الـفـصـاد

فـتـروَى ثـم تـرجـع عـاطـفـات
عـليّ وهـن كـالهِـيـم الـصـوادي

الحب والهوى
في أشعار العرب

س ـ نتكلم في الشعر العربي عن الحب والهوى والعشـق والغـرام وغيرها. ونحن نعـرف على وجـه العموم معنى الحب والعشق والهـوى، ولا بد أن يكون العـرب في أشعارهم أو في غـيرها قـد وصفوا الحب أو الهوى أو العشق، فكيف وصفوه؟

ج ـ الكلمة العامـة في هذا البـاب هي الحب، ثم قسمه العـرب إلى درجات فقالوا أول الحب الهوى ثم العلاقة ثم الكَلَف ثم الوَجْد ثم العِشق ثم الشغف ثم الغرام ثم الجوى ثم الهُيام وغيره. وأكثرُ ماَ ذكروا من هذه الدرجات ثلاث: وهي الحب والهوى والعشق، ولم يميزوا بينهـا كثيـراً في أشعـارهم كـما أنهم لم يميـزوا بـالتـدقيق بـين الغـزل والنسيب والتشبيب.

س ـ وهل عرّف العرب الهوى والحب والعشق؟

ج ـ لم يعـرِّفـوا أحـداً منها تعـريفاً صحيحـاً ولم يكونـوا يستطيعون تعريفه، وإنما عرفوه بآثاره. خذ مثلاً هذه الأقـوال في الهوى. يقـول أبو العتاهية:

يـقــول أنــاس لــو نـعـتَّ لـنــا الهــوى
ووالـلـهِ مــا أدري لهـم كـيـف أنــعـتُ

سَقامٌ على جسمي كثيرٌ موسَّعٌ

ونومٌ على عيني قليل مفوَّتُ

إذا اشتدّ ما بي كان أفضلَ حيلتي

له وضعُ كفي فوق خدي وأسكتُ

ويقول البهاء زهير:

يقول أناسٌ لو وصفتَ لنا الهوى

فواللهِ ما أدري الهوى كيف يوصف

ويقول أحمد شوقي:

يقول أناس لو وصفتَ لنا الهوى

لعلّ الذي لا يَعرف الحب يَعرِف

فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقته

فواللهِ ما أدري الهوى كيف يوصَف

وكان الهوى يقال له الهَوان، ورأيت أن أعرابية سئلت عن الهوى فقالت:

ليت الهوى لذوي الهوى لم يُخْلَقِ

بل ليت قلبي بالهوى لم يَعلَق

إن الذي عَلِق الهوى بفؤاده

كمنوّطٍ دون السماء مُعلَّق

لا يستطيع نزوله لشقائه

لكن إليه كُلُّ همّ يرتقي

إن الهوى لهو الهوان بعينه

ما ذاق طعمَ الذل من لم يعشق

س ـ وماذا قالوا عن الحب، وأظنهم لم يصفوه كما لم يصفوا الهوى.

ج - لم يصفوا الحبّ أيضاً. خذ مثلاً قول ابراهيم بن علي الحصري القيرواني:

إني أُحِبُّكَ حبًّا ليس يبلغه
وهمي ولا ينتهي فهمي إلى صفته
أقصى نهاية علمي فيه معرفتي
بالعجز مني عن إدراك معرفته

وإنما وصفوه بآثاره، كقول محمد بن عبد الله بن مُناذر:

مَن فتىً أصبح في الحب سقاه الحب سُمّا
كلما أخفى جوى الحب عليه الدمعُ نمّا
ساهِرٌ لا يَطعم النومَ إذا الليلُ ادلهمّا
كلّما راقب نجماً فهوى راقب نجما
أنتمُ همي فإن لم تصلوني مِتّ غمّا
يا ثقاتي خَطَم الحب لكم أنفي وزمّا
يا أخي دائي جوى الحب وداءُ الناس حُمّى
لا تَلُم مفتضِحاً في الحب إن الحبَّ أعمى

ويقول ابن دُرَيد:

وما في الأرض أشقى من محب
وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً في كل وقت
مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم
ويبكي إن دنوا خوف الفراق
فتسخُن عينه عند التنائي
وتسخن عينه عند التلاقي

س ـ وماذا قال العرب عن العشق؟

ج ـ أقول عن هذا بقول أبي السائب المخزومي، فقد ذكر الأصمعي أنه رأى أبا السائب يوماً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يبتهل ويقول: اللهم ارحم العاشقين وآعطِف عليهم قلوب المعشوقين بالرأفة والرحمة يا أرحم الراحمين. فقال له الأصمعي: يا أبا السائب، في هذا المقام تقول هذا المقال، فقال أبو السائب: إليك عني، الدعاء لهم فيه فضل وأجرْ، ثم أنشأ يقول:

يا هجرُ كُفّ عن الهوى ودع الهوى
للعاشقين يطيب يا هجرُ
ماذا تريد من الذين جفونهم
قَرحى وحشو صدورهم جمر
وسوابقُ العبرات فوق خدودهم
هُطْلاً تلوحُ كأنها القطر
صرعى على جسر الهوى لشقائهم
بنفوسهم يتلاعب الدهر

وقول أبي السائب في الدعاء للعاشقين قريب من قول ابن الرومي:

أيها العاشقُ المعذَّب إصبر
فخطيئات ذي الهوى مغفوره

وهذا مثل قول مسلم بن الوليد:

فوالله لا أدري وإني لسائل
بمكة أهلَ العلم هل في الهوى وِزْر
وهل في اكتحال العين بالعين ريبة
إذا ما التقى الإلفان، لا بل به أجر

وفي العشق أقوال للأطباء والفلاسفة وإخوان الصفا والصوفية، وألّفوا فيه كتباً منها كتاب تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق، وكتاب مصارع العشاق.

وعلى كلّ فالشعراء العرب لم يفرقوا بين الهوى والحب والعشق والغرام والهيام وغيرها، بل استعملوها كلّها بمعنى واحدٍ تقريباً.

* * *

وجادت بوصل حيث لا ينفع الوصل !

كثيرة في الشعر العربي الأبيات التي تصف حال المحبّين الذين شفَّهم الوجد وأشرفوا على الهلاك، ومنهم الشاعر امرؤ القيس القائل:

ولّما رأتني في السياقِ تَعَطَّفت

علَيَّ وعندي من تعطفها شُغلُ

أتت وحياضُ الموت بيني وبينها

وجادت بوصلٍ حين لا ينفع الوصلُ

ورأيت في شرح الشريشي لمقامات الحريري عن رجل من بني عذرة قال: كان فينا فتى ظريف غَزِل كثيراً ما يتحدث إلى النساء فهويَ جارية (أي فتاةً) من الحي فراسلها فأظهرت له جفوةً، فوقع مُدْنفاً وظهر أمره وتبيّن دنفه، ولم تزل النساءُ من أهلها وأهله يُكلّمْنها فيه حتى أجابت فسارت إليه عائدةً ومُسَلِّمة فلمّا نظر إليها فاضت عيناه بالدموع وأنشأ يقول:

أَرَيْتُك إن مَرَّت عليك جنازتي

تروح بها أيدٍ طِوال وتُسرع

أما تَتْبَعين النعشَ حتى تُسَلِّمي

على رَمْسِ ميتٍ بالحفيرة يُودع

فبكت رحمةً وقالت: والله ما ظَنَنْتُ أنّ الأمر بلغ بك هذا.

فوالله لأساعِدنّك ولأداومنّ على وصالك، فهملت عيناه بالدموع وأنشأ يقول:

دنت وظلالُ الموت بيني وبينها
ومَنَّت بوصلٍ حين لا ينفع الوصل

ثم مات.

وهذا البيت فيه تلميح إلى قول أبي فراس الحمداني:

معللتي بالوصل والموتُ دونه
إذا مِت ظمآناً فلا نزل القطرُ

وهو على عكس ما قاله المعري:

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي
سحائبُ ليس تنتظم البلادا

ورأيت في معجم الأدباء لياقوت أن الشريف الكحّال أهدى إلى أبي عُنَين خروفاً مهزولاً فكتب إليه أبو عنين أبياتاً قال فيها:

أتاني خروفٌ ما شككتُ بأنه
حَليفُ هوَى قد شَفّه الهَجرُ والعَذْلُ
إذا قام في شَمس الظهيرة خِلْتُه
خيالاً سرى في ظُلمةٍ ما لها ظِل
فناشدته ما تشتهي؟ قال: قَتَّة،
وقاسمته: ما شَفّه؟ قال لي الإكلُ!

فأحضرتُها خضراءَ مَجّاجة الثّرَى
مُسَلَّمَة ما حَصّ أوراقَها الفتل
فظلّ يُراعيها بعينٍ ضعيفة
وَيُنشِدها والدمعُ في العين منهلّ

«أتـت وحـيـاضُ المـوت بـيـني وبـيـنهـا
وجـادت بوصـلٍ حين لا ينفـع الوصل!»

والقَتَّة هي البرسيم. فالخروف كان قد أشرف على الموت لضعفه وهزاله من قلة الطعام.

* * *

لا تَفْخَرْ فَيُفْخَر عليك

تزوج عبد الله بن الزبير أمّ عمرو ابنة منظور الفزارية فلما خلا بها قال لها: أتدرين من معكِ في حِجْلتك؟ قالت: نعم عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العُزّى. قال: ليس هذا. قالت: ما الذي تريد؟ قال: معكِ من أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد، لا بل بمنزلة العينين من الرأس. قالت: أما والله لو أن بعض بني عبد مناف حضرك لقال خلاف ذلك. فغضب وقال: الطعام والشراب عليّ حرام حتى أُحضرك الهاشميين وغيرهم من بني عبد مناف فلا يستطيعون لِما قلتُ إنكاراً، قالت: إن أَطَعتني لم تفعل، وأنت أعلم، وشأنَك.

فخرج إلى المسجد فرأى حلقة فيها قوم من قريش منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن الحُصين بن الحارث بن عبد مناف، فقال لهم ابن الزبير: أُحبّ أن تنطلقوا معي إلى منزلي. فقام القوم بأجمعهم حتى وقفوا على باب بيته. وقال ابن الزبير لزوجته: اطرحي عليك سترك. فدخل القوم وأخذوا مجالسهم ثم دعا ابن الزبير بالمائدة فتغدى القوم. فلما فرغوا قال ابن الزبير: إنما جمعتكم لحديث ردّته علي صاحبة الستر، وزعمت أنه لو كان بعض بني عبد مناف حضرني لما أقرّ لي بما قلت، وقد حضرتم جميعاً الآن، فيا ابن عباس، ما تقول؟ إني أخبرتها أنّ معها

في خِدرها من أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد، لا بل بمنزلة العينين من الرأس، فردّت عليّ مقالي. فقال ابن عباس: أراك قصدت قصدي، فإن شئتَ أن أقول قلتُ وإن شئتَ أن أكفف كففت. فقال ابن الزبير: بل قُل، وما عسى أن تقول؟ ألست تعلم أني ابن الزبير حواري رسول الله ﷺ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصّديق ذات النطاقين وأن عمتي خديجة سيدة نساء العالمين وأن صفيّة عمة رسول الله ﷺ جدتي وأن عائشة أم المؤمنين خالتي، فهل تستطيع لذلك إنكاراً؟ فقال ابن عباس: لقد ذكرت شرفاً وفخراً غير أنك تفاخر من بفخره فخرت وبفضله سموت. قال ابن الزبير: وكيف ذلك؟ فقال ابن عباس: لأنك لا تذكر فخراً إلاّ برسول الله ﷺ، وأنا أولى بالفخر به منك. فقال ابن الزبير: لو شئتُ فخرت عليك بما كان قبل النبوة. قال ابن عباس: قد أنصف القارة من راماها، نشدتكم اللهِ أيها الحاضرون: أعبد المطلب أشرف في قريش أم خُوَيْلِد؟ فقالوا: عبد المطلب. قال ابن عباس: أفهاشم كان أشرف أم أسد؟ قالوا: بل هاشم. قال: أفعبدُ مناف كان أشرف أم عبد العُزّى قالوا: عبد مناف. فقال ابن عبّاس:

تنافِرني يا ابن الزبير وقد قضى
عليك رسول الله لا قولَ هازل
ولو غيرَنا يا ابن الزبير فخرتَه
ولكنما ساميت شمس الأصائل

قضى لنا رسول الله بالفضل حين قال: ما افترقت فرقتان إلاّ كنتُ في خيرهما. فقد فارقناك من بعد قُصَيّ بن كلاب، أفنحن في فرقة الخير أم لا؟ فإن قلت: نعم، فقد خُصِمْت، وإن قلت: لا؟ فقد كفرت. فضحك بعض القوم. فقال ابن الزبير: والله لولا تحرّمك بطعامنا يا ابن العباس لأعرقتُ جبينك قبل أن تقوم من مجلسك! قال

اين عباس: ولِمَ؟ أبباطل، والباطل لا يغلب الحق، أم بحق، والحق لا يخشى من الباطل؟ فقالت المرأة من وراء الستر: إني والله قد نهيتُه عن هذا المجلس، فأبَى إلاّ ما ترون. فقال ابن عباس: مَهْ أيتها المرأة، اقنعي ببعلك.

فأخذ القوم بيد ابن عباس (وكان قد عمي) وقالوا: انهض أيها الرجل، فقد أفحمته غير مرة. فنهض ابن عباس وهو يقول:

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا
فلو تُرك القطا لغفا وناما

وجرى مثل ذلك بين معاوية ومروان بن الحكم. فقد روي أن عبد الرحمن بن الحكم قدم على معاوية بن أبي سفيان في الشام وكان معاوية قد عزل أخاه مروان بن الحكم عن ولاية المدينة، وولّى مكانه سعيد بن العاص، وكان قدوم عبد الرحمن بتوجيه من أخيه مروان الذي قال له: إلقه وعاتبه واستصلحه. فسار عبد الرحمن إلى أن قدم على معاوية فدخل عليه وهو يعشّي الناس وأنشأ يقول:

أتَتْكَ العِيسُ تنفُخ في بُراها
يكشِّف عن مناقبها القُنوع
بأبيضَ من أُميّة مَضْرَحِيّ
كأن جبينه سيف صَنيع

فقال له معاوية: أزائراً جئتَ أم مفاخراً أم مكاثراً؟ فقال له: أي ذلك شئت. فقال معاوية: ما أشاء من ذلك شيئاً.

وأراد معاوية أن يقطعه عن الكلام الذي عَنَّ له فقال له: على أي الظهر أتيتنا؟ فقال عبد الرحمن: على فرس. قال: ما صفته؟ قال: أجشّ هزيم، يُعرّض بقول النجاشي لمعاوية:

ونجّى ابن حـرب سابـح ذو غـلالـة
أجشّ هـزيـم والرماح دواني
إذا خِـلْتُ أطـراف الـرمـاح تنـالـه
مَـرَتْـه لـه الـسـاقـان والـقـدمـان

فغضب معاوية لهذا التعريض وقال: أما إنـه لا يـركب ذلـك الفرسَ صاحبه في الظلام إلى الرّيب، ولا هو ممّن يتسور على جاراته ولا يثب على كناتـه بعد هجعـة الناس. وكـان عبد الـرحمن بن الحكم يتّهم بذلك في امرأة أخيه. فخجـل عبد الـرحمن وقال: يـا أمير المؤمنـين، ما حملك على عزل ابن عمك مروان؟ ألخيانة أوجبت سخطاً أم برأي رأيته وتـدبير أصلحته؟ فقال معاوية: لتدبير أصلحتُـه. قال عبـد الرحمن: لا بأس بذلك. وخرج من عنده.

ولقي أخاه مروان فأخبره بما جرى بينـه وبين معـاوية، فـآستشاط مـروان غضباً، وقـال لعبد الـرحمن: قبحك الله مـا أضعفك! عـرضتَ للرجل بما أغضبته به حتى إذا انتصر منك أحجمتَ عنه.

ثم لبس مـروان حلّتـه وركب فـرسـه وتقلّد سيفـه ودخـل عـلى معاوية، فقـال معاويـة حين رآه وتبـيّن الغضب في وجهه: مـرحباً بـأبي عبد الملك، لقد زُرتنا عند اشتياق منا إليك.

فقال مروان: ألا والله ما زرتُك لذلك، ولا قَدِمْتُ عليك فـألفيتك إلّا عاقاً قاطعاً، والله ما انصفتنا ولا جزيتَنا جزاءَنا، لقد كانت السـابقة في بني عبد شمس لآلِ أبي العاص، والصهر برسـول الله لهم والخلافـة فيهم، فوصلوكم يا بني حرب وشرفوكم وولّوكم وما عزلوكم ولا آثـروا عليكم، حتى إذا وُليتم وأفضى الأمـر إليكم أبيتم إلا أثرة وسـوء صنيعة وقبح قطيعة، فرويداً رويداً فقد بلغ بنو الحكم وبنـو أمية نيّفـاً وعشرين

وإنما هي أيام قلائل حتى يكملوا أربعين، ثم هم للحَسَن الحسنى وللسّوء بالمرصاد.

فقال له معاوية: عزلتك لثلاث لو لم تكن منهن إلا واحدة لأوجبت عزلك: إحداهن أني أمّرتك على عبد الله بن عامر وبينكما ما بينكما فلم تستطع أن تستشفيَ منه، والثانية كراهتك لأمر زياد، والثالثة أن ابنتي رملة استعدتك على زوجها عمرو بن عثمان فلم تُعدِها.

فقال مروان: أما ابن عامر فإني لا أنتصر منه بسلطاني ولكن إذا تساوت الأقدام عَلِم أين موضعه، وأمّا كراهتي أمر زياد فإن سائر بني أمية كرهوه وجعل الله لنا في ذلك الكره خيراً، وأما استعداء رملة على زوجها عمرو فوالله إنه ليأتي عليّ سنة أو أكثر وعندي بنت عثمان فما كشفت لها ثوباً ـ يعرض بأن رملة إنما استعدت على زوجها طلباً للمضاجعة ـ. فقال معاوية: يا ابن الوَزغ لستَ هناك. فقال مروان: هو ذاك، وإني الآن والله لأبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة، وقد كاد ولدي أن يكملوا العِدّة (أي أربعين)، ولو قد بلغوها عُلِم أين تقع أنت مني. فانخزل معاوية، ثم قال متمثلاً بقول العباس بن مَرداس:

فإن أكُ في شِراركم قليلاً
فإني في خياركم كثير
بُغاث الطير أكثرها فراخاً
وأم الصقر مقلاة نَزور

ولمّا فرغ مروان من كلامه خضع له معاوية، وقال له: لك العُتْبَى وإني رادّك إلى عملك. فوثب مروان وقال: لا وعيشك لا رأيتني عائداً إليه أبداً. وخرج.

فقال الأحنف بن قيس لمعاوية: ما رأيتُ لك سقطةً مثل هذه، ما هذا الخضوع لمروان، وأي شيء يكون منه ومن بني أبيه إذا بلغوا

أربعين، وأي شيء حسبنا نخشاه منهم؟ فقال له معاوية: أُدْنُ مني أُخبرك بذلك. دنا منه الأحنف فقال له معاوية إن الحكم بن أبي العاص كان أحد مَن قَدِم مع أختي أم حبيبة لّما زُفّت للنبي، فجعل رسول الله ﷺ يُحِدّ النظر إليه، فلمّا خرج قيل للنبي: يا رسولَ الله حدَّدتَ النظرَ إليه؟ فقال ابن المخزومية (سعيد بن العاص) ذاك رجل إذا بلغ ولده ثلاثين أو أربعين ملكوا الأمر بعدي. فقال الأحنف: لا يسمعنّ هذا أحدٌ منك، فإنك تَضَعُ من قَدْرك وقَدْر ولدك بعدك، وإن قضى الله أمراً يكون.

* * *

وقد أصبح بعدها مروان بن الحكم خليفة وكان من ولده من الخلفاء: عبد الملك ويزيد وهشام وسليمان.

الصبح والليل والثريَّا

كان السيد ديدين بن معلوم من سلبابي في موريطانيا سألني عن قائل هذين البيتين:

وكأنّ الصبحَ لّما لاح من تحت الثريا
مَلِكٌ أقبل في التـ ـاج يُفَدَّى ويُحيَّى

كنت أجبت على سؤاله، وذكرتُ أبيات ابن المعتز التي منها هذان البيتان وهما:

يا خليلي آسْقِياني قهوةً ذاتَ حُمَيّا
إن تكن رشداً فرشداً أو تكنُ غيًّا فَغَيا
قد تولّى الليلُ عنا وطواه الصبحُ طيّا
وكأنَّ الصبحَ لّما لاح من تحت الثريا
مَلِك أقبل في التـ ـاج يُفَدّى ويَحيَّى

ثم وردت عليّ أسئلةً عن سائلين عِدة عن هذين البيتين فأحببت أن آتي بأشعار أخرى عن صورة الملك وعليه التاج وحوله النجوم أو الأقمار.

وأبدأ بقول الشيخ أبي منصور المزرباني كما في كتاب «من غاب عنه المطرب» وهو:

كم ليلة أحييتُها ومُنادمي
طَرْفُ الحبيب وطِيبُ حَسوِ الأَكْؤُسِ

شبَّهتُ بدرَ سمائِها لمّا دنت
منّي الثريّا في قميصٍ سُنْدُسي
مَلِكاً مَهيباً قاعداً في روضة
حيّاه بعضُ الزائرين بنَرْجِس

ورأيت في يتيمة الدهر للوأواء الدمشقي:

لَيْتَ ليلي أَمَدُّ في نَفَس العاشِق
طولاً إذ زار فيه الخليلُ
ما اعتنقنا حتى افترقنا
وخِفتانُ الدُّجَى عن قميصه محلول
وكأنَّ الهلالَ تحت الثريا
مَلِكٌ فوق رأسه إكليل

وقال تميم بن المُعِزّ:

أُنظر إلى الليل كالزّنجي مُنْهَزِماً
والصبحُ في إِثْره يعدو بأَشْهَبِه
والبدرُ مُنتصِبٌ ما بين أَنْجُمه
كأنه ملِك في صدرِ موكبه

ويقول عبد الوهاب بن حَزم:

ولم أَنْسَ مَسْرى رَبَّةِ القُرط إذ سرَت
عِشاءً وفرعُ الليل مُحْلَوْلِكٌ جَعْدُ
كأنَّ الثريا خاتَمٌ في بنانها
ومِنطقةُ الجَوْزاء في جِيدها عِقد
وقد طلع البدرُ المنير كأنه
مَليكٌ وَأَشْتاتُ النجوم له جُنْد

وقال عبد العزيز بن الحاكم كما في يتيمة الدهر:

وكأنَّ البدرَ والمِرّيـ
ـخُ قد وافى إليه
مَلِكٌ توقدُ لَيْلاً
شَمْعَةٌ بين يديهِ!

ويقول الصلاح الصفدي:

كأنَّما الأغصان في روضها
والبدرُ في أثنائها مُسْفِرُ
بنتُ مليك سار في موكب
قامت إلى شُبّاكِها تنظُر

وأذكر بهذه المناسبة أن السّراج الوراق أكثر من وصف النجوم على اختلافها بما يشبه وصف الثريا والبدر كما ذكرنا، وقد لا يخلو من فائدة الإتيانُ بشيء من ذلك، فهو يقول:

وليلةَ زارت والثُّريا كأنها
نظاماً وحُسْناً عِقْدُها وابتسامُها
وحَيَّت فأحيت ما أمات صُدودُها
ورَدَّت فَرَدّ الروحَ فيَّ سَلامُها
كأنّ الدراري والهِلالَ ودارةً
جَوَته وقد زان الثريا التئامها
حَبَابٌ طفا مِن فوقِ.زورقِ فِضّة
بكفّ فتاةٍ طاف بالراح جامُها
كأنّ نجوماً في المجرَّة خُرَّدٌ
سَوَاقٍ رَمَاها في الغدير رُخامها
كأنَّ رياضاً قد تسلسل ماؤها
فشُقَّت أقاحيها وشُقّ خَزامُها

كـأنّ سنـا الجـوزاء إكليـلُ جـوهـر
أضـاءت لآلـيـه وراق انـتـظامُـهـا

كـأنّ لـه الـنَّسْرَيـن في الجـوّ غِـلمـةٌ
رُمـاةٌ رمـى ذا دون هـذا سِـهـامُـهـا

كـأنّ سُـهـيـلاً والـنـجـومَ وراءَه
صفـوفُ صـلاةٍ قـام فيـهـا إمـامُها

كـأنّ الـدُّجى هيجـاءُ حـرب نجـومُـه
أسِـنَّتُـهـا والبـرقُ فـيها حُـسـامُـها

كـأنّ الـنـجـومَ الهـاويـات فـوارسٌ
تَـسـاقَطُ مـا بـين الأسِـنّـةِ هـامُـها

كـأنّ سـنـا المِـرّيـخ شُـعـلةُ فـارس
تـلوح عـلى بُـعـدٍ ويَخـفى ضِرامُـهـا

كـأنّ الـسُّهَـى صَـبٌّ سها نـحـو إلْفه
يُـراعي الليـالي جَـفنُـه لا ينـامُـهـا

كـأن خـفـوقَ الـبرق قـلبُ مِـتَـيَّـم
رأى بَـلدة الأحبـاب أقـوَى مَـقـامُـهـا

كـأنّ ثُـريّـا أُفـقـه في انبسـاطـهـا
يمـينُ كـريـمٍ لا يُخـاف انضمـامُها

وفي الختام نذكر قول السري الرفاء:

تَـرعـى الـثريـا والـبـدرَ في قَـرَنٍ
كـما يُحَـيَّـى بـنَـرْجِسٍ مَـلِكُ

أيُّها المنكحُ الثريَّا سُهَيْلاً !

هذا الشطر مشهور وهو للشاعر عمر بن أبي ربيعة المخزومي من أبيات في ديوانه يقول فيها:

أيُّها الطَّارقُ الذي قد عَنَاني بعدما نام سامِرُ الرُّكْبانِ
زار مِن نازح بِغَير دَليلٍ يَتَخَطَّى إليَّ حتى أَتاني
أَيُّها المُنكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيلاً عَمْرَكَ اللهَ كيف يَلْتَقيانِ؟
هي شَامِيَّةٌ إذا ما استقلَّت وسُهَيْلٌ إذا استقلّ يماني

والثُّرَيّا هنا هي الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث، وكان تزوجها سُهَيْلُ بنُ عبد الرَّحمن بن عوف الزُّهْري وحملها إلى مصر، وكان عمرُ غائباً، فلمّا عَلِم بزواجها قال الأبياتَ، يُوَرِّي عن اسمها وعن اسم زوجها بنجم الثريا ونجم سهيل. فالثريا نجمٌ لا يُرى إلاّ في نصف الكرة الشمالي، وسهيلٌ نجمٌ جَنوبي لا يُرَى في الشمال، فهما متباعدان جداً ولا يمكن التقاؤهما، فكيف التقيا هذه المرة؟ وكان عمرُ بن أبي ربيعة يُشَبب بالثريا هذه كثيراً ويُعَرّض في شعره بنجم الثريا. ومن ذلك مثلاً قولهُ:

طالما عَرَّسْتُمُ فَٱسْتَقِلُّوا حان من نجمِ الثريا طُلوعُ

والأقوالُ في الثريا كثيرة. ونَجمُ الثريا مُؤَلَّفٌ في الحقيقة مِن سبعِ كواكب. ولذلك يقول أبو بكر الخالدي أو كشاجم أو ابن طباطبا:

خليليَّ إني لِلثُّرَيَّا لَحَاسِدُ وإنّي على ريب الزمان لَوَاجِدُ
أيبقى جميعاً شَمْلُها وهي سَبْعة وأُفْقِد من أحببتهُ وهو واحدُ

وكلمةُ الثريا في اللغة مشتقة من الثَّراء وهو كثرةُ المال، وهي تصغيرُ ثَرْوَى، وثَرْوَى معناها كثيرةُ المال من النساء. وقال البيروني الفلكي المشهور إنما سميت بذلك لأن المَطَرَ الذي يأتي بِنَوْئِها تكون منه الثروةُ وهي الغنى، أي إنها مِن أنواءِ القمر ذاتِ الخِصب.

وفي مقامات الحريري قولُه: وأنَّى يَلتقي سُهَيلٌ والسُّها، وقال الشريشي في شرحه إن الحريري أَرَاد أن يقول: وأنّى يَلْتَقِي سهيلٌ والثريا، فأبدل الحريري لفظَ الثريا بالسُّها، والسُّها نجمٌ صغيرٌ خَفِيٌّ من بنات نعش، وهو شاميٌّ كالثريا.

وفي الميثلوجيا الإغريقية أَنّ الثريا واسمُها Pleiades هي في الأَصل بناتُ أَطْلَس السبعْ من أُمِّهِنّ Pleione رَفعَهُن إلهُ الآلهة زِفْس إلى السماء. وفي علم الفلك أَنَّ نجمَ الثريا واقعٌ في كوكبة الثـور Taurus ، وسِتةٌ من كواكبها ظاهرة تُرى بالعين النافذةِ البصر وكوكبٌ سابعٌ خَفِيّ، سمّاه الإغريق بالكوكب المفقود يَعْنُون بذلك أن البنتَ السابعةَ من بنات أطلس كانت في السماء ثم ضاعت.

أمّا سُهَيل فهو كوكب أحمر يُطلِقون عليه في الفلك اسمَ Canopus ، وَيُخَيَّـل إلـى الناظر لشدةِ اضطرابه أَنَّه يَستدِير في حركته. ويقال له عند العرب سُهَيل اليماني والفحل. ويقول العربُ عنه إنه كان في الدنيا عَشَّاراً يتقاضى الأعشارَ من الناس فاشتطَّ عليهم فمسخه الله نجماً ورَفَعه إلى السماء. ويُظَن أيضاً كما قال الكرملي أَنَّ سُهيلاً كان في الأصل إلهاً عند عرب الجاهلية. ومن أقوالهم أيضاً أنه لا تقع عينُ بعير على سُهيل إلاّ مات من حينه، ولذلك فإن الإبلَ، إذا طَلَع سهيلٌ

تصرِفُ وجوهَها عنه حتى لا تراه، وتُقابِلُه بأعجازها، ولذلك قال المتنبي:

وتُنكِر قَتْلَهم وأنا سهيلٌ طَلَعْتُ بموتِ أولادِ الزِّناءِ

وأشار المعري إلى ذلك بقوله:

لا تَحْسَبَنْ إبلي سُهَيْلاً طالِعاً بالشام فالمَرئيُّ شُعلَةُ مَقْبِس

وقال المعري في سُهَيل وفي احمراره واستدارته واضطرابه، كما ذكرنا:

وسُهَيلٌ كَوَجنةِ الحِبِّ في اللَّوْنِ وقَلبِ المُحبّ في الـخَفَقـانِ
مُستديرٌ كأنه الفارسُ المُعلِم يَبدو مُعارِضَ الـفُرسـانِ
يُسْرِعُ اللَّمْحَ في احمرار كما تُسرِع باللَّمحِ مُقْلَةُ الـغَضبـان
ضَرَّجَتْه دَماً سيوفُ الأعادي فَبَكَتْ رَحمةً له الشِّعْرَيانِ
قَدَماه وراءَه وهو في العَجزِ كَسَـاعٍ ليست له قَـدَمـانِ

وفي هذه الأبيات إشارةٌ إلى أن سُهيلاً لا يجري مع النجوم بل يعارِضُها. ومن أقوالِ العرب التي أشار إليها المعري أنَّ سُهَيْلاً أقْبَل من جهة اليَمَن وسار شمالاً إلى الشام وأقبلت الشِّعريانِ من الشام إلى جهة اليَمَن حتى انتهى بهما المسير إلى المجرّة وهي نهرٌ في الفلك، كما يقولون. فوقف كُلٌّ مِن الفريقين على شاطىءِ ذلك النهر. وخَطَب سُهَيْلٌ الشِّعْرَيَيْن، فقبلت به الشعرى اليمانيةُ وقطعت النهر إليه، ولم تَقدِر الشاميةُ أن تَعْبُرَ النهر فوقفت على ضفته تبكي على فراق أختها حتى غَمِصت عيناها فسميت بالشعرى الْغُمَيْصَاءِ. ومن أقوالهم عن الثريا أن الدَّبَران خطب الثريا وأراد القمرُ أن يُزوّجَه إياها فأَبت ووَلَّت عنه لأنه كان سُبروتاً لا مال له. ولكن الدَّبران عاد فجمع إبلَه وقِلاصَهُ وأخذ يتبعها حيث سارت يُريد أن يُعطِيها مَهرَها وهي ترفض أن تقف.

* * *

وفي ختام حديثنا عن الثريا وسهيل، لا بدّ من أن نذكر هذه الأبيات لمحيي الدين بن عربي وفيها ذِكرٌ لبيتَيْ عمر بن أبي ربيعة، ولا يخلو هذا من فائدة.

يقول ابن عربي في قصيدةٍ له مشهورة مطلعها:

مَرَضي من مريضةِ الأجفانِ   عَلِّلاني بذكرها عَلّلاني

ثم يقول بعد عددٍ من الأبيات:

طال شوقي لِطَفْلَةٍ ذَاتِ نَثْرٍ   ونِظامٍ ومِنْبَرٍ وبيانِ
مِن بناتِ الملوك من دار فُرسٍ   مِن أَجَلّ البلاد من إصفهانِ
هي بنتُ العراقِ بنتُ إمامٍ   وأنا ضِدُّها سُهَيْلُ اليماني
هل رأيتم يا سادتي أو سمعتم   أنَّ ضِدَّيْنِ قطُّ يجتمعانِ
لو تَرَوْنا برامةٍ نتعاطى   أكؤساً للهوى بغير بنانِ
لَرَأيتم ما يَذْهلُ العقلُ فيه   يَمَنٌ والشآم معتنقانِ
كَذَب الشاعِرُ الذي قال قبلي   وبأحجارِ عَقلِه قد رماني
أيُّها المُنكحُ الثريا سُهيلاً   عَمْرَكَ اللهَ كيف يلتقيانِ
هي شامِيَّةٌ إذا ما استقلت   وسهيل إذا استقلّ يماني

ذمُّ المبالغة في تطويل اللحى

طالعت في هذا الموضوع أقوالاً وأشعاراً كثيرة من جملتها بعض الأقوال عن اللحية وعظمها أو اللحية وخفتها وعن علاقة عِظَم اللحية بالدماغ، فإن بعض العرب كانوا يقولون إن اللحية تغتذي من الدماغ، فإذا عَظُمت صَغُر العقل لأنها بِعِظَمِها تكون قد انتقصت الدماغ. وكانوا يقولون لذلك: من عظمت لحيته تكوسج عقله، أي صار عقله خفيفاً. ومن ذلك قول ابراهيم الوراق:

لَعَمْـرُكَ مـا طـالت بتلك اللحى لكم
حيـاةٌ ولكن بـالعقـول الكـواسـج

ويروى أن الأحنف بن قيس قال: إذا رأيتم الرجلَ عظيمَ اللحية طويل القامة فآحكموا عليه بالحمق. وقال معاوية لرجل: كفى أن نَشْهَدَ عليك بالحمق ما نراه من طول لحيتك. وقال زياد بن أبي سفيان: ما زادت لحيةُ رجل على قبضةٍ إلّا كان ذلك نقصاناً من عقله.
وقد أنشدوا:

إذا عـرضَـت لـلفتى لحيـةٌ
وطـالـت وصـارت إلى سرَّتـه
فـقـد ضـاق عقـلُ الفتى عنـدنـا
بمـقـدار مـا زاد مـن لحيتـه

وقال المأمون: ما طالت لحيةُ رجل إلاّ وقد تكوسج عقله. وأنشد المأمون أيضاً:

مــا أحــد طــالــت لــه لحــيــةٌ
فــزادت الــلحــيــةُ في حــلــيــتــه

إلاّ ومــا يــنــقص مــن عــقله
أكــثرُ ممــا زاد في لحــيــتــه

وأنشد أبو العباس:

كُــلّ امــرىءٍ ذي لحــيــة عَــشْــوَلِــيّــة
يَقــوم عــليـهــا ظَــنَّ أن لهــا فَــضــلا

ومــا الفضــلُ في طــول السبــال وعَــرضِــه
إذا الــلهُ لم يجعــل لــصــاحبــه عــقــلا

ويقول العسكري:

قُــل لــلمُــدِلّ بــلحــيــة مــوفــورة
وســاد لحــيــة كــلّ حــي جَــهْــلهُ

لا يُــعْــجِــبَــنّــكَ طــولُ بــنــدك إنــه
مــن طــال لحيتــه تــكــوسج عــقله

ويقول محمد بن اسحاق البحاثي في هجو لحيته:

يــا لحــيــةً قــد عُــلّقــت في عــارضي
لا أستــطيــع لقبحــهــا تــشــبيــهــهــا

طــالــت فــلم تُــفــلِح ولم تــك لحــيــةٌ
لِــتَــطولَ إلاّ والحــماقــةُ فــيــهــا

ويقول الخبز أرزي:

لقــد عَمَــرَتْ في وجــه سَحْبــانَ لحيــةٌ
ومــا عَمَــرت إلا وفي العــقــل تخــريب

فـليت اسمُ مـوسى فـوقهـا مـتمـكـن

وإن غـاب مـوسى فـاسم هُـرون مقلوب

ومقلوب (هُرون) هو النُّورة وهو دواء لحلق الشعر.

وقال ابن الرومي:

إن تـطل لحـيـةٌ عـليـك وتـعـرضْ

فـالمـخـالي مـعـروفـة للحـمـير..

عـلَّق الـلهُ فـي عِـذاريْـكَ مِـخـلاةً

ولـكـنـهـا بـغـيـر شـعـيـر

لـو غـدا حـكـمُـهـا إلـيّ لـطارت

فـي مـهـبّ الـريـاح كـلّ مَـطيـر

لـو رأى مـثـلهـا الـنـبـيُّ لأَجْـرى

فـي لحى الـنـاس سُـنَّـةَ الـتـقـصـير

وقال أبو العتاهية:

لا تفخرنّ بلحية كثرت منابتها طويلة

تَهْوي بها هُوجُ الرياح كأنها ذنب الحسيلة

قد يُدرك الشرفَ الفتى يوماً ولحيته ضَئيلة

ضيفٌ على الضيف..

وجدتُ هذه الحكاية في العِقد الفريد عن ضيف نزل بآبن أبي حَفصة في اليمامة فأخلى ابنُ أبي حفصة له المنزلَ وهَرَب عنه، مخافة أن يَضْمَنَ طعامه تلك الليلة. فلما طال بالضيف الانتظار، خرج فآشترى ما يحتاجه من طعامٍ ثم رجَع، وقبل أن يغادرَ المنزل كتب هذين البيتين إلى آبنِ أبي حفصة يقول له:

يا أيُّها الخارجُ من بيته　　وهارباً من شِدة الخَوف
ضيفُك قد جاء بزادٍ له　　فآرجِع تكن ضيفاً على الضيفِ

والحكايةُ موجودةٌ أيضاً في عيون الأخبار عن مَروان بنِ أبي حَفْصة الشاعر. والبيتُ الأول مَرْويٌّ هكذا:

يا تاركَ البيتِ على الضيفِ　　وهارباً منه من الخوفِ

ورأيتُ بهذه المناسبة في عيون الأخبار بيتين في قريبٍ من هذا المعنى لبشار، وهما:

أضيافُ سالمَ في خَفض وفي دَعَةٍ
وفي شرابٍ ولَحمٍ غير ممنوعِ
وضيفُ عمروٍ وعمروٌ يَسْهَران معاً
عمروٌ لِبطنتِهِ والضيفُ للجوعِ

وفي الكامل للمبرّد أنّ البيتين لِدِعبل الخُزاعي. وقريبٌ من ذلك بيتان لأبي عبد الله بن الحَجّاج كما في اليتيمةِ وفي الإعجاز والإيجاز:

يا رائحاً في بيته جائياً
من غير ما معنىً ولا فائده
قد جُنّ أضيافُك من جوعِهم
فاقرأ عليهم سُورةَ المائده

ومما يُنسب إلى أبي نواس قولُه في رجلٍ اسمُه أبو نوحٍ:

أبو نوحٍ أتيتُ إليه يوماً
فغدّاني برائحةِ الطعام
وقدَّم بيننا لحماً سميناً
أَكَلْناه على طبق الكلام
فلمّا أنْ رَفَعْتُ يدي سقاني
كؤوساً حَشْوها ريحُ المُدامِ
فكان كمن سقى الظمآن آلاً
وكنت كمن تغدَّى في المنام

وفي العقد الفريد وغرر الخصائص أشعارٌ كثيرة في هذا المعنى وأمثاله نكتفي بالإشارة إليها.

بانت سعاد..

في الأدب العرب، قصائد كثيرة تبدأ بهذا المطلع، ولنبدأ الآن بهذا المطلع:

بـانت سعـاد وأمسى حبلهـا انقـطعـا
واحتلّت الـظهـرَ فـالجِـدَّيْن فالفَرَعـا

وهذا المطلع هـو للأعشى ميمـون بن قيس من قصيدة يقـول فيها بعد المطلع:

وأنـكـرتني ومـا كـان الـذي نَكَـرت
مـن الحـوادث إلاّ الشيـبَ والـصَّلعـا
تـقـول بنـتي، وقـد قـرَّبتُ مُـرْتحـلاً
يـا ربّ جَنِّب أبي الأوصـابَ والـوَجَعَـا

ورأيتُ في تزيين الأسواق عن الأغاني أنه كان في المدينة المنورة رجل ناسِك كثيرُ العبادة، فمرَّ يوماً بجاريةٍ تغني بشعر الأعشى وتقول:

بـانت سعـادُ فـأمسى حبلْهـا انقـطعـا
واحتلت العَـوْد فـالجَـدَّيْن فـالفـرعـا
وَأنـكـرتني ومـا كـان الـذي نـكـرت
مـن الحـوادث إلاَّ الشيـبَ والـصَّلَعـا

فهام حتى كاد أن يَخْرُجَ عقله، فذهب إليه صديقان له يلومانِه في ذلك فأنشد من الوزن والقافية:

يَلومُني فيكِ أقوامٌ أُجالِسُهم
فما أُبالي أطار اللومُ أم وقعا

وسمع ابنُ جعفر بذلك فاشترى الجارية بأربعين ألفَ درهم. ثم أحضر الناسك. وكان الصوتُ الذي سمعه من الجارية من تلحين عَزّة المَيْلاء. فأحضرها، وقال للناسك: أتُحِبّ أن تسمعَ الصوتَ من صاحبته؟ قال: نعم. فغنت عزّة بالشعر واللحن فسقط مَغْشِيًّا عليه، ثم أفاق. وسمع الغناء من الجارية مرة أخرى، ثم خرج مِن عند ابن جعفر بالجارية وبمال كثير. هذه صورةٌ عن جانبٍ من الحياة المدنية في ذلك الزمان.

وعبارةُ بانت سعاد.. مطروقةٌ عند الشعراء. فقد ذكر الزُّبَيدي في طبقات النحاة أن بُنْداراً الأصبهاني كان يحفظ تسعمئة قصيدةٍ أولُ كُلّ منها: بانت سعاد. ونذكر فيما يلي مطالعَ عددٍ من القصائد على هذا النحو. من ذلك قول زهير:

بانت سعاد وأمسى حبلُها انقطعا
وَلَيْتَ وَصْلاً لنا مِن حبلها رَجَعا

وقولُ ربيعة بن مقروم:

بانت سعاد فأمسى القلبُ معمودا
وأَخْلَفَتْكَ ابنةُ الحُرِّ المواعيدا

وقول قَعْنَب بن ضَمْرة:

بانت سُعادُ وأمسى دونها عَدَنُ
وعُلِّقَت عندها مِن قَلْبِكَ الرُّهُن

وقولُ النابغة الذُّبياني:

بـانت سعـاد وأمسى حبلُهـا انجـذمـا
واحتلت الشَّرْع فـالأَجـزاعَ من إضَـما

وقول الأعشى ميمون:

بـانـت سعـاد وأمسى حبـلهـا رَأَبـا
وأحـدث النَّـأْيُ أشـواقـاً وأوصـابـا

وقول الأخطل:

بـانت سعـاد فـفي الـعيـنين مُلْمُـولُ
من حبِّهـا وصحيـحُ الجسمِ مخبـولُ

وقول الأخطل أيضاً:

بـانت سعـاد ففي الـعيـنين تسهيـد
وآستحقبت لُبَّـه فـالقلبُ مَعْمُـودُ

وقول عَدِيّ بن الرِّقاع:

بـانت سعـاد وأخلفت ميعـادَهـا
وتبـاعـدت منـا لِتَمْنَـعَ زادَهـا

وقول القيس بن الحَدَّادِيّة:

بـانت سعـاد فـأمسى القلبُ مشتـاقـا
وأَقْـلَقَـتهـا نَـوَى الأزمـاع إقْـلاقـا

وأشهر من هذا كُلّه قولُ كعب بن زهير:

بـانـت سعـاد فقلبي اليـومَ مَتْبـولُ
مَـتَيَّـمُ إثْـرهـا لم يُفْـدَ مَـكْبُـولُ

وهذا مطلع قصيدته المشهورة التي أنشدها بين يدي النبي ﷺ ومنها :

إنّ الرسولَ لَنورٌ يُستَضاءُ به
مُهَنَّدٌ مِنْ سيوف ٱلله مَسْلولُ

في فِتْيَةٍ من قُريشٍ قال قائلُهُمْ
بِبَطنِ مكةَ لما أسْلموا زولوا[1]

زالوا فما زال أَنْكاسٌ ولا كُشُفٌ
عند اللقاء ولا مِيلٌ معازيلُ[2]

شُمُّ العرانين أبطالٌ لُبوسُهُمْ
من نَسْجِ داودَ في الهيجا سرابيلُ[3]

وأتت هذه القصيدة في تسعة وخمسين بيتاً .

---

(١) زولوا : اذهبوا (إشارة إلى الهجرة إلى المدينة المنورة) .

(٢) الأنكاس : الضعفاء . الكُشُف : الذي ينهزمون عند أول صدمة . المعازِيل : العزُل الذين لا سلاح لهم .

(٣) أي شم الأنوف وملابسهم هي الدروع السابغة .

ربّ يبول الثعلبان برأسه !

أَرَبٌّ يـبـول الـثُـعْـلُبـان بـرأسـه
لقـد ذَلّ من بـالـت عليـه الثَّعـالِـب

وهذا البيت المشهور هو من قول رجلٍ اسمُه غـاوي بن ظالِم من بني سُلَيم، وكنتُ كـتبتُ عنـه في مناسبـة سـابقـة. ثم رأيتُ في حيـاة الحيـوان الكبرى للدمـيري أن غاويَ بنَ ظـالم هذا من بني تغلب وليس من بني سُلَيم، وكان سادِناً لصنم لهم كانوا يعبدونه في الجاهليـة. فجاء ثعلبانٌ وهو ذكر الثعالب فـرفع رجلَه وبـال على الصنم. فلما رأى ذلـك غاوي بن ظالم أدرك أن الصنم لا يضر ولا ينفع بل لا يستطيع أن يدفعَ عن نفسـه. فكسر الصنَم وجاء النبي ﷺ وأسلم. وقـال لـه النبي: مـا اسمُـك؟ قال: غـاوي بن ظـالم. فقـال النبي: لا، بـل أنت راشـد بن عبد ربه. ويروى أنه قال البيت حينئذ. وفي الدميري حكايةٌ أخرى عن ذلك وهي أنه كان لرجل صنم وكان يأتي له بالخبزِ والزُبدِ، ويضعُهما عند رأس الصنم ويقول له: إطْعَم. فجاء ثعلبانٌ وأكل الخبز والزبد ثم بال على رأس الصنم، فقـام الـرجـل فضرب الصنم فكسره ثم جـاء إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك وقال أبياتاً فيها:

لـقـد خـاب قـومٌ أمَّـلُوكَ لـشـدة
أرادوا نِـزالاً أنْ تـكـونَ تُحـارِب

فـلا أنـتَ تُغني عـن أمـورٍ تـواتـرت
ولا أنـتَ دَفَّـاعٌ إذا حَـلّ نـائـب

فـلو كـان ربًّـا كـان يمنـع نـفسَـه
فـلا خـيرَ في رَبّ نـأتـه المـطالـب

أرَبٌّ يـبـول الـثـعلبـانُ بـرأسه
لقـد ذل من بـالـت عليـه الثعـالـب

ورأيتُ في البداية والنهاية لابن كثير حادثةً مشابهـةً عن صنم يقال له مَنات، وكان لرجـلٍ من بني سَلمة اسمـه عمرو بن الجَمُـوح. وكان هذا الصنم من خشبٍ يضعه عمـرو في داره يتبرك بـه. فلما أسلم فتيانُ بني سلمة، كانوا يأتون في الليل إلى هذا الصنم فيلقونـه في بعـض حُفَر بني سَلمة وفيها القاذورات ويلقونه مُنكَّساً على رأسه. فإذا أصبح عمرو ولم يَرَ الصنم قال: وَيْلَكُم مَن عـدا على إلهنـا هذه الليلة؟ ثم يـأخذُ في البحث عنـه حتى إذا وجده غَسَله وطيَّبـه وطهّره. ثم قـال للصنم: أمَـا والله لو أَعلمُ مَن فَعَل بكَ هذا لأَخْـزِيَنّه. فـإذا أمسى ونام عمـرو عَـدَا عليـه الفِتيانُ وفعلوا بـه مثلَ ذلـك. فكـان عمـرو يعود فيـأتي بـالصنم فيغسِلُه ويطيبه ويطهره.

فلمّا تكرّر ذلك، قام عمرو فغسل الصنم وطيبه وطهـره، ثم جاء بسيفه فَعَلَّقه عليه وقال لـه: أني والله ما أَعلم مَن يصنـع بكَ مـا أرى، فإن كان فيك خيـر فآمتنع: هذا السيفُ معك. فلمّا أَمْسَى عمـرو ونام، عَدَوا على الصنم فأخذوا السيفَ من عنقه، ثم أخذوا كلبـاً ميتاً فقـرنوه به بحبل، ثم أَلقَوْه في بئر من آبار بني سلمة فيها قاذوراتُ الناس. فلما أصبح عمرو غدا إلى الصنم فلم يجده في مكانه الذي كان فيـه، فخرج يبحث عنه، حتى إذا وَجَدَه في البئر منكَّساً مقروناً بكلبٍ ميت تغيَّر رأيه فيه، ثم كلّمه من أَسلم من قومه، فأسلم.

وقد قال يصف حالِه مع إلٰهه:

واللّـهِ لـو كـنـتَ إلٰهـاً لم تـكُـن
أنـتَ وكـلبٌ وَسْطَ بئـرٍ في قَـرَنْ
أُفٍّ لمـلقـاكَ إلٰهـاً مُـسْـتَـدَنّ
الآن فتَّشـنـاكَ عـن سـوء الـغَـبَـن
الحـمـدُ لله الـعـليّ ذي المِـنَـن
الـواهـبِ الـرزاقِ دَيّـانِ الـدِّيَـن
هـو الـذي أنـقـذني مـن قـبْـلِ أنْ
أكـونَ في ظـلـمـةِ قـبرٍ مُـرْتَهَـن

* * *

أخبار وطرائف
من سير الشعراء والأدباء

---

١ ـ أحمد بن يوسف الكاتب

هو أحمد بن يوسف الكاتب ويُكنى أبا جعفر، وَلِيَ ديوانَ الرسائل للخليفة المأمون، وكانت وفاته سنة ٢١٤ هجرية أو١٢٩ ميلادية.

وذكر ابن عساكر في ترجمة له هذين البيتين:

إذا المرء أفشى سرّه بلسانه
فصدرُ الذي يُسْتَوْدَع السِّر أضيقُ
إذا ضاق صدرُ المرءِ عن سرّ نفسه
ولام عليه غيره فهو أحمق

وأورد له أيضاً من شعره قوله:

قد يُرزَق المرءُ لا عن حِيلةٍ صدرت
ويُصْرَف الرِّزْقُ عن ذي الحيلةِ الداهي

وأورد له أيضاً:

إذا قلتَ في شيءٍ نَعَمْ فَأَتِمَّه
فإنَّ نَعَمْ دَينٌ على الحُرِّ واجب
وإلّا فَقُلْ (لا) تَسْتَرِحْ وتُرِحْ بها
لِئلَّا يقولَ الناسُ إنك كاذب

ووَجَدْتُ في حماسة البحتري أنَّ هذين البيتين لرجلٍ اسمُه هَرِمُ بْنُ غَنّام السَّلُولي.

وفي معنى هذين البيتين رأيت قولَ دِعامة بن زيد الطائي:

ولا تُفْشِيَنْ سِرًّا إلى ذي نميمة
فذاكَ إذاً ذَنْبٌ برأسك يُعْصَبُ
إذا ما جَعَلتَ السِرَّ عند مُضَيِّع
فإنك مِمَّن ضَيَّع السرَّ أَذْنَبُ

ورأيت في المحاسن والأضداد أبياتاً للعُتبي وُرَدَ فيها إشارة إلى ما هو مذكور في بيتي أحمد بن يوسف، وهي:

ولي صاحِبٌ سِرِّي المُكَتَّمُ عِنده
مَحارِيقُ نِيرانٍ بِلَيلٍ تُحَرَّقُ
عَطَفْتُ على أسرارِه فكسوتُها
ثياباً من الكِتمان ما تَتَخَرَّقُ
فَمَنْ تَكُن الأسرارُ تَطفو بصدره
فأَسرارُ نفسي بالأحاديث تَغْرَقُ
فلا تُودِعَنَّ الدَّهْرَ سِرَّكَ جاهلاً
فإنك إن أَوْدُعته منه أَحْمَقُ
وَحَسْبُكَ في سَترِ الأحاديث واعظاً
من القولِ ما قال الأديبُ المُوَفَّقُ
إذا ضاق صدرُ المرء عن سِرِّ نفسِه
فَصَدْرُ الذي يستودع السر أَضْيَقُ

وكانت وفاة العُتبي سنة ٤٢٧ هجرية أي بعد وفاة أحمد بن يوسف الكاتب بأزيد من مئتي سنة، ولهذا يمكن أن يقال إنه اقتبس بيتَ أحمد بن يوسف. وأشار إليه بقوله: الأديب الموفق.

٢ ـ أبو سليمان الخطّابي

هو أحمد بن محمد أبو سليمان الخطابي، ومن أشهر أبياته:

إرضَ للناس جميعاً مِثلَما تَرْضَى لِنَفْسِكْ
إنما الناسُ جميعاً كُلُّهم أبناءُ جِنسِكْ
فلهم نفسٌ كنفسِكْ ولهم حِسٌّ كَحِسِّكْ

وكان مولد أبي سليمان الخطابي هذا سنة ٣١٩ هجرية أو ٩٣١ ميلادية وكانت وفاته سنة ٣٨٨ هجرية. وهو من وَلد زيد بن الخطاب أخي عُمَرَ بنِ الخطاب رضي الله عنهما، ولذلك سَمَّوْه بالخطابي. وكان يعرَف أيضاً بِحَمْد بن محمد، ولذلك قال فيه يرثيه أبو بكر بن ابراهيم الحنبلي:

وقد كان حَمْداً كاَسمه حَمِدَ الورى
شَمَائِلَ فيها للثناءِ مَمادِحُ

وقال أبو سليمان: اسمي الذي سُميت به حَمْد، ولكنَّ الناس كتبوه أحمد، فتركتُه عليه.

وكان أبو سليمان واسعَ الصدر مع أهلِ زمانه، كما رأينا في الأبيات الثلاثة التي ذكرناها ولكنه كان مع ذلك يتضجر من عيشِه في زمانه، حتى إنه قال عن حاله في بلده بُسْت:

ومـا غُـربَـةُ الإنسـانِ في شُقَّـةِ النَّـوى

ولـكـنـهـا واللهِ في عَـدَم الـشَّـكْـل

وإني غَـريبٌ بـين بُـسْتٍ وأهلهـا

وإن كـان فـيـهـا أُسرتي وبهـا أهـلي

ومِمّا يَدُلّ على تَبَرُّمِه بالنـاس وبمجتمعه وشِـدَّة إعراضِـه عن أهلِ زمانه قولُه يخاطب طائراً رآه على شجرةٍ وحدَه، يتغنى لنفسه:

يـا لـيتـني كنـتُ ذاك الـطائـرَ الغَـرِدا

مِـن الـبَـرِيَّـةِ مُـنـحـازاً وَمُـنْـفَـرِدا

في غُصنِ بـانٍ دَهَتْهُ الـريـحُ تَخْفِضُـهُ

طـوراً وتـرفـعُـه أفـنـانُـه صُـعُـدا

خِـلْوَ الهـمـوم سِـوَى حَـبّ تَـلَمَّـسـه

في الـتُّرب أو نُغْبـةٍ يَـرْوِي بهـا كَبِـدا

مـا إن يُـؤَرِّقُـه فِـكـرٌ لِـرزق غَـد

ولا عـلـيـه حسـابٌ في المـعـاد غـدا

طـوبـاك مِن طـائـرٍ طـوبـاك وَيْحَكَ طِبْ

مَن كـان مِثْلَكَ في الـدنيـا فقـد سَعِـدا

ومِن أقواله في الغربة وعدم وجود الصديق الموافق:

ولـيس اغـترابي عـن سِـجـسـتـان أنـني

عَـدِمْتُ بهـا الإخـوانَ والـدارَ والأهـلا

ولـكـنـي مـا لي بهـا مِـن مُـشـاكـلٍ

وإن الغـريبَ الفَـردَ مَن يَعْـدَمُ الشَّكْـلا

وله في إضرار الناس بالناس:

شَرُّ الـسـبـاع الـعـوادي دونـه وَزَرُ

والـنـاسُ شَـرُّهُـمُ مـا دُونَـهُ وَزَرُ

كم مَعْشَرَ سَلِموا لم يُؤذِهِمْ سَبُعٌ
وما ترى بشراً لم يُؤذِه بَشَرُ

ومِثلُ قوله:

إرض للناس جميعاً مثلما ترضي لنفسك

قوله:

ما دُمتَ حَيًّا فدارِ الناسَ كُلَّهُمُ
فإنما أنتَ في دارِ المداراةِ
مَن يَدْرِ دارَى، ومَن لم يَدْرِ سوف يُرَى
عمّا قليلٍ نديماً للنَّداماتِ

* * *

٣ ـ أبو علي المعروف بابن مقلة

هو محمد بن علي بن الحسن، وكُنيته أبو علي والمعروفُ بآبن مُقلة، وكان قد وَلِي الوزارةَ لثلاثةٍ من الخلفاء وهم المقتدرُ بالله والقاهرُ بالله والراضي بالله، إلى سنة ٣٢٦ هجرية أو ٩٣٦ ميلادية حينما عُزِل عن الوزارة آخراً وكان قد جمَّع أموالاً طائلةً، وبنى داراً فخمةً له بعد أن كان في أولِ أمره ضعيفَ الحالَ فقيراً لا يملك شروى نقير. فلمّا عُزِل عن الوزارة في بغداد خُرِّبت دارُه، وصودرت أملاكه، وأخذ منه من المال مبلغُ مليون دينار، وقُطعت يَدُه اليمنى، ثم سُجن وحدَه، ليس معه مَن يخدِمه مع كِبَره وَضعفه وانعدام يدٍ من يديه، حتى إنه كان يستقي الماءَ بنفسه من بئرٍ عميقة، فكان يدلّي الحبلَ بيده اليسرى ويُمسِكه بفمه بين أسنانه. ولمّا قُطِعَت يَدُه اليمنى قال:

ما سَئِمْتُ الحياةَ لكنْ تَوثَّقْتُ للحياةِ
بأَيْمانهم فبانت يميني
بِعت ديني لهم بدنيايَ حتى
حَرَمُوني دنياهُمُ بعد ديني
ولقد حَفِظتُ ما استطعتُ بجَهدي
حِفظَ أرواحهم فما حَفِظوني

ليس بعد اليمين لذة عيشٍ

يا حياتي، بانت يميني، فبيني

وكان ابن مقلة، وهو خطّاط مشهور، يبكي على يمينه كثيراً، وكان يقول: كَتبتُ بها القرآن مرتين، وخدمت بها ثلاثة من الخلفاء، تُقْطَع كما تقطع أيدي اللصوص، ثم يُنشِد:

إذا ما مات بعضُك فآبكِ بعضاً

فإنَّ البعضَ من بعضٍ قريبُ

وهذا البيت منسوبٌ إلى الجَرْمي في شرح الشريشي لمقامات الحريري، ولعلّه الخُريمي كما في الشعر والشعراء وفي يتيمة الدهر، والبيت من بيتين هما:

إذا ما مات بعضُك فآبكِ بعضاً

فبعضُ الشيء من بعض قريب

يُمَنِّيني الطبيبُ شفاءَ عيني

وما غيرُ الإلَه لها طبيب

وكان الخُريمي قد عمي في آخر أيامه.

ومات ابنُ مُقْلَةَ في مَحبسه ودُفِن في دار السلطان. ثم سأل ولدُه أبو الحسين أن يُحَوَّل إلى عنده فأُجيب إلى ذلك فَنُبِشَ وَدُفِنَ في دارِ ولدِه هذا. ثم سألت زوجتُه المعروفةُ بالدينارية أن يُدفَن في دارها فأُجيبت إلى ذلك فَنُبِشَ وَدُفِنَ عندها. فكان بذلك قد دُفِن ثلاث مرات. وتُوفي وله من العمر ستٌّ وخمسون سنة.

ورأيت في عيون الأخبار شعراً لعبد الله بن سَبْرَة الحَرَشي يَرثي به يمينه وكانت قد قُطعت. فهو يقول:

ويْلُمَّ جارٍ غداةَ الجِسْر فارقني

أَعْزِزْ عليَّ به إذ بان فآنْصَدَعَا

يُمْـنَى يَـدَيَّ غَـدَتْ مـني مُـفَـارقـةً
لم أَسْتَـطِعِ يـومَ مِلْطاسٍ لهـا تَـبَـعَـا
ومـا ضَـنِنْتُ عليـهـا أنْ أُصـاحِبَـهـا
لقـد حَـرَصْتُ عـلى أن نَستريـحَ معـا

وفي هـذا شَبَهٌ بقـول ابن مُقلة حين تَمَنَّى أن يفقـد حياتَـه ويَلْحَقَ بيمينه.

وتـرجم ابنُ خلكـان لابن مقلة، وقـال إن الخليفـة المقتـدر بـالله استوزره لأول مرة سنة ٣١٦ هجرية أو ٩٢٨ ميلاديـة. وفي ابن خلكان تفصيلاتٌ وافية، منها أنَّ ابنَ مقلة كان يَشُدُّ القلمَ على ساعده وَيكْتُب بـه بعد قـطع يمينه ثم قُـطِع لسانُـه. ومات وهـو في هـذه الحـالـة سنـة ٣٢٨ هجرية أو ٩٤٠ ميلادية.

* * *

٤ ـ نِفْطَوَيْه

هو أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة، وعرف بنفطويه وقد رأيت في زهر الآداب الأبيات التالية منسوبة إليه:

كم قد ظَفِرْتُ بمن أَهْوَى فَيَمْنَعُنِي
منه الحياءُ وخوفُ الله والحَذَرُ
وكم خَلَوْتُ بمَنْ أَهْوَى فَيُقْنِعُني
منه الفكاهةُ والتقبيلُ والنَّظَر
أَهْوَى المِلاحَ وأَهْوَى أن أُجالِسَهُم
وليس لي في حَرَامٍ منهمُ وَطَرُ
كذلك الحبُّ لا إتيانُ مَعْصِيةٍ
لا خيرَ في لذَّةٍ من بعدِها سَقَرُ

وله أيضاً في هذا المعنى:

ليس الظريفُ بكاملٍ في ظَرْفِهِ
حتى يكونَ عن الحرام عَفِيفا
فإذا تَعَفَّفَ عن محارِمِ رَبه
فهُناكَ يُدْعى في الأنامِ ظريفا

وقريبٌ من هذا قولُ العباس بن الأحنف من مشهور الشعر:

أتَأْذَنون لِصَبٍّ في زيارتكم
فعندكم شَهَواتُ السمع والبصرِ

لا يُضمِرُ السوءَ إن طالت إقامتُه
عَفُّ الضمير ولكن فاسِقُ النَظر

ومنه قول أبي بكر بن داود العباسي:

أُنَزِّه في رَوْضِ المحاسن مُقْلَتي
وأَمْنَعُ نَفْسي أن تنالَ مُحَرَّما

وَأَحْمِلُ مِن ثِقْلِ الهوى ما لَو آنَّهُ
يُصَبُّ على الصخر الأَصَم تهدَّما

وينطق طَرفي عن مُتَرْجَمِ خاطري
فلولا اختلاسي رَدَّه لَتَكَلَّما

رأيتُ الهوى دعوى من الناس كلِّهم
فلستُ أرى حبًّا صحيحاً مُسَلَّما

فردَّ عليه أبو العباس بن سُريج الشافعي فقال:

ومُطَاعِمٍ للشَّهْدِ من نَغَمَاتِه
قد بتّ أَمْنَعُه لذيذَ سُبَاتِه

صَبًّا بِحُسْنِ حديثه وكلامِه
وأُكَرِّر اللحظاتِ في وَجَنَاتِه

حتى إذا ما الصبحُ لاح عَمودُه
ولَّى بخاتَمِ ربِّه وبُرَاتِه

ونِفْطَوَيْه اثنان: أحدهما أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة وهو الذي كنا بصَدده، والثاني أبو الحسن علي بن عبد الرحمن المصري، وكلاهما من أئِمة النحو. وسُمِّي بنفطويه لشبهه بالنفط لدمامته

وسمرته، وجُعلَ الاسمُ على مِثال سِيبَوَيْه. وقال فيه ابنُ بسام كما في معجم الأدباء لياقوت:

رأيتُ في النوم أبي آدماً
صَلَّى عليه ذَوُو الفَضْلِ
فقال: أبلغ وَلَدي كُلَّهم
مَن كان في حَزْنٍ وفي سَهْلِ
بأنَّ حواءَ أُمَّهم طالِقٌ
إن كان نِفْطَوَيْهِ مِنْ نَسْلي

وقال عنه ابن دُرَيد يَرُدّ عليه

لو أنزل النحوُ على نِفْطَوَيه لكان ذاك الوحيُ سُخْطاً عليه
وشاعِرٍ يُدْعَى بنصف آسْمِه مُسْتَأْهِلٌ للصفع في أخْدَعَيْه
أَحْرَقه الله بنصفِ آسْمِه وصَيَّر الباقي صُراخاً عليه

وكان نفطويه قد قال في ابن دريد من قبل:

ابن دريد بَقَرَه وفيه لؤمٌ وشَرَهْ
فقد آدَّعَى بجهله جَمْعَ كتاب الجمَهره
وهو كتابُ العين إلَّا أنه قد غَيَّره

الفهـرس